المحك الإسلامي للسلوك السوي

د. علاء الدين كفافي
قسم الصحة النفسية
كلية التربية ـ جامعة قطر

ملخص

مشكلة التمييز بين السلوك السوي والسلوك غير السوي من أعقد مشكلات علم النفس الشواذ ، ولها جوانبها النظرية وجوانبها العملية . وتهدف الدراسة الحالية إلى تبين ما إذا كان يمكن استنباط محك للسلوك السوي من الإسلام . ولذا تحددت أهداف الدراسة في الاجابة على التساؤلات الآتية :

ـ ما هي المحكات المستخدمة في التمييز بين السلوك السوي والسلوك غير السوي ؟
ـ هل يمكن استنباط محك للسلوك السوي من الدين الإسلامي ؟
ـ إذا أمكن استنباط مثل هذا المحك . فما هي الأسس والمباديء التي يقوم عليها ؟
ـ إذا أمكن استنباط مثل هذا المحك فما هي خصائصه ومميزاته التي تميزه عن غيره من المحكات ؟

وقد عرضت الدراسة لمحكات ستة شهيرة وهي : المحك الذاتي ـ المحك الاحصائي ـ محك التكيف ـ محك التكامل ـ المحكم الاجتماعي ، ومحك نمو الفرد وصالح الجماعة . كما عرضت الدراسة لبعض المحكات العملية التي حاولت معالجة النقص الذي كان موجودا في المحكات النظرية . وتقوم الدراسة على أنه يمكن استخلاص مثل هذا المحك من الإسلام ، باعتباره دينا شاملا ، لابد وأن يتضمن محكا للتمييز بين الصور السوية والصور غير السوية من السلوك . وقد عرضت الدراسة للمحك الإسلامي من خلال العناون الاتية :

ـ محك الإسلام وفلسفته في الانسان والكون والمجتمع والأخلاق .
ـ مميزات التشريع الإسلامي .
ـ معالم المحك الإسلامي . ويقوم أساسا على فكرة التوازن بين الأطراف ، حيث يجمع بين محاسن هذه الأطراف دون عيوبها . وقدمت الدراسة نموذجا مقترحا للسلوك السوي طبقا للمحك الإسلامي ، أو محك المتوازن ، مع ذكر أمثلة لهذا السلوك المتوازن ، كما اشتمل على عدد من القواعد التي تحكم السلوك السوي في الإسلام وتهدف إلى نمو واستقرار المجتمع .

وانتهت الدراسة إلى أن المحك الإسلامي ذاته يتميز بالخصائص الآتية :

ـ الانسانية
ـ العالمية
ـ الشمول
ـ الواقعية
ـ الوضوح
ـ المرونة

كما انتهت الدراسة إلى أن السلوك السوي طبقا للمحك الإسلامي يتسم بأنه سلوك :

- واقعي
- مرن
- يعكس فهم الذات وتقبلها وتطويرها
- التناسب
- يعكس الأمن والطمأنينة
- يعكس الادارك الصحيح للواقع
- التعادل في العلاقات مع الآخرين

أولا : مدخل إلى الدراسة :

يستهل جيمس كولمان سفره « الموسوم » « علم نفس الشواذ والحياة الحديثة » بقوله « إذا كان القرن السابع عشر ، يوصف بأنه عصر التنوير ، وإذا كان القرن الثامن عشر ، يوصف بأنه عصر العقل ، وإذا كان القرن التاسع عشر يوصف بأنه عصر التقدم ، فإن القرن العشرين هو عصر القلق » (Coleman 1964, 1) . وكولمان محق في قوله ، خصوصا فيما يتعلق بالقرن العشرين ، لأن العوامل النفسية غدت تلعب دورا هاما جدا في الوجود الانساني مع بداية هذا القرن ، الذي افتقد فيه الانسان الطمأنينة ، وتعددت المصادر التي تهدد أمنه واستقراره .

لقد قطع الانسان شوطا لا بأس به في سبيل فهم الطبيعة المحيطة به ، وتمكن من تسخير كثير من قواها لحساب راحته ورفاهيته . وأصبح الانسان سيد الطبيعة بلا منازع رغم أنه ليس أقوى الكائنات الحية . وقد تمكن الانسان من ذلك بفضل استخدام عقله . وقد استطاع الانسان ، بفضل العقل والتفكير ، أن يصل إلى معرفة كثير من القوانين التي تحكم حركة العالم الطبيعي . ولكن الانسان لم يتقدم في اكتشاف القوانين التي تحكم عالمه الخاص ، أو حياته النفسية بنفس القدر . فقد تقدم الانسان طبيعياً ، ولكنه لم يتقدم بالمثل انسانيا ، وإذا كانت عضلاته قد نمت فإن أخلاقه لم تنم بنفس الدرجة . وهي المشكلة التي تحدث عنها المفكرون وفلاسفة الأخلاق باعتبارها تمثل « أزمة الانسان المعاصر » .

هذه الحال التي يعيشها الانسان المعاصر دفعته إلى أن يفهم ما يدور بداخله ، وأن يعرف طبيعة دوافعه ، ودوافع الآخرين ، يدفعه إلى ذلك رغبته في أن يدرأ عن نفسه حالات الضيق والقلق ، وليحسن التعامل مع المحيطين به ، وليحصل على السكينة والهدوء . ويشهد على هذه النزعة إقبال الناس الشديد على قراءة كتب علم النفس ، واهتمام الصحف والمجلات السيارة بهذا الجانب من المعرفة . لأن الانسان حريص على أن يفهم الآخرين ، وأن يتعامل معهم في ضوء فهمه للقوانين التي تحكم سلوك البشر في تفاعلهم ، مدركا أن جزءا غير يسير من نجاحه في حياته العائلية والمهنية والاجتماعية يتوقف على هذا الفهم ، وعلى حسن ترجمته في سلوك عملي . ورغم ازدياد ونمو المعرفة النفسية ، فإن كثيرا من الأفكار الخاطئة لازالت شائعةبينكثير من الناس

حتى بين المتعلمين منهم . وتشيع هذه الأفكار خاصة حول سوية (Normality) السلوك أو « لا سويته » (Abnormality) . وتأخذ هذهالأفكار الخاطئة صورا مختلفة منها :

- التفسيرات الاحادية ، التي تفسر السلوك غير السوي بإرجاعه إلى عامل واحد ومحدد واحد كإرجاعه إلى العامل الوراثي وحده ، أو إلى ضغوط الحياة الاجتماعية بمفردها .
- التعميمات الخاطئة والاستنتاجات المبتسرة مثل الاعتقاد بأن الجنس هو الذي يتسبب في نشأة السلوك غير السوي .
- التهوين أو التهويل من أمر فهم وعلاج السلوك غير السوي ، كالاعتقاد في استحالة فهم السلوك غير السوي ، وبالتالي تعذر علاجه . أو التهوين من شأن لا سوية السلوك ، واعتبار الاضطراب النفسي أمر ميسور العلاج ، إذا توافر للمريض الارادة للشفاء .
- الأفكار القديمة التي تنسب مختلف صور السلوك غير السوي إلى الأرواح الشريرة ، أو أنها مس من عمل الشيطان . وتشيع هذه الأفكار بصفة خاصة بين أفراد مجتمعات العالم الثالث .
- الأفكار التي تنسب قدرات خارقة إلى أصحاب السلوك غير السوي . وتشيع هذه أيضا في مجتمعات العالم الثالث .

ويعتقد الباحث أن من أهم مصادر الأفكار الخاطئة الشائعة حول السلوك غير السوي هو الخلط بين الصور السوية والصور غير السوية من السلوك ، وجمع الأساليب السلوكية غير الشائعة في زمرة واحدة ، وإرجاعها إلى عوامل بعينها ، على الرغم من التباين الكبير الذي يوجد بين هذه الأساليب . فقد يربط كثير من الناس بين السلوك غير السوي وكل من ظاهرتي التفوق العقلي والتخلف العقلي ، وربما كانت ندرة وغرابة السلوك المرتبط بهاتين الظاهرتين بعض الشيء ، وراء إدراجهما في فئة السلوك غير السوي .

ويجرنا الحديث عن شيوع الأفكار الخاطئة حول الأعراض النفسية ، والخلط بينها وبين السلوك السوي إلى مشكلة من أعقد مشكلات علم نفس الشواذ (Abnormal Psychology) ، ونعني بها مشكلة التمييز بين السلوك السوي والسلوك غير السوي ، وهي موضوع الدراسة الحالية .

ثانيا : موضوع الدراسة : التمييز بين السلوك السوي والسلوك غير السوي :

من المشكلات المتحدية أمام العلماء والباحثين في المجال الكلينيكي (Clinical Field) مشكلة التعرف على السلوك غير السوي ، والتمييز بينه وبين السلوك السوي . وهذا التمييز على

جانب كبير من الأهمية ، لما يترتب عليه من نتائج على الصعيدين النظري والعملي . ويكفي أنه ـ من الناحية النظرية ـ لا يمكن الوصول إلى تعريف دقيق للصحة النفسية (Mentál Hygeine) وتحديد معاييرها ، مالم يتضح تعريف السلوك السوي والسلوك غير السوي . لأننا نصف صاحب السلوك السوي ، بأنه متمتع بالصحة النفسية ، كما نصف صحاب السلوك غير السوي بأن لديه نقص في الصحة النفسية . أما من الوجهة العملية والتطبيقية ، فإن العلاج أو التوجيه بتوقفان على تحديد الأنماط غير السوية من السلوك ، ودرجة لا سويتها . كذلك فإن موقف المجتمع من الفرد ذاته يتحدد بناء على إدراك المجتمع لمدى سوية سلوك الفرد . ولذا وجد العاملون في المجال الكلينيكي سواء من الاخصائيين النفسيين (Psychologists) أو من الأطباء النفسيين (Psychiatrists) أنه من الضروري التمييز بين الصور السوية والصور اللاسوية من السلوك .

وإذا كان أمر تحديد السلوك غير السوي أو الشاذ بهذه الدرجة من الأهمية والخطورة ، فماذا نعني بتعبير « غير سوي » أو « شاذ » ؟ إن كلمة شاذ تعني البعد عن السواء ، وهو ما لا يمكن الوصول إليه أو قياسه ، إلا إذا كان لدينا معيار نحدد به هذا السواء ، الذي يحدث الانحراف بالقياس إليه . وهذه العملية سهلة وميسورة في الجانب الجسمي ، لأن هناك معيار للسواء الجسمي ، يمكن التعرف على المظاهر الشاذة بالرجوع إليه .

ويتمثل المعيار الجسمي في درجة من التكامل البنياني والوظيفي للجسم ، بمعنى أن كل عنصر يقوم ـ وفي تنسيق مع الأعضاء الأخرى ـ بوظيفته في حدود معينة ، بحيث تعتبر أية زيادة أو نقصان ، مظهرا من مظاهر اللاسواء ، كذلك فإن قيام العضو بوظيفته مستقلا عن بقية الأعضاء ، ينتج عنه إضطراب في الحالة الصحية للجسم ، كما يحدث عندما تستقل بعض الخلايا في الجسم ، وتنمو بمعدل أعلى من المعدل الطبيعي لبقية الخلايا . وتكون النتيجة حينئذ أن هذه الخلايا تسحب الغذاء من الخلايا المجاورة ، وتنتج حالة مرضية ، وهي ما تعرف بالأورام الخبيثة أو السرطان . وكما يحدث عندما يزيد أو ينقص ما تفرزه الغدد الصماء من هرمونات ، فتضطرب الوظائف الجسمية والنفسية نتيجة للاضطراب الهرموني ، والمعيار الجسمي ـ والذي يمكن التحقق من درجة توافره بالقياس الدقيق نسبياً ـ يمكننا من التعرف بسهولة على ما إذا كانت أعضاء الجسم تؤدي وظيفتها في الحدود السوية أم أنها خرجت إلى حيز الشذوذ واللاسواء . وهذا يعني أنه لدينا في المجال الجسمي « مثال » أو « نموذج » نقيس عليه شذوذ المظاهر أو سويتها .

فإذا انتقلنا من الجانب الجسمي إلى الجانب النفسي ، فإنه لا يتوافر لدى علماء النفس هذا

المثال « أو النموذج » للحالة الصحية ، يحكمون بالقياس إليه على سلوك ما بالسوية أو الشذوذ . وإذا كانت الأجهزة الجسمية تعمل لأهداف واحدة ، وعن طريق ميكانزمات واحدة عند جميع الأفراد ، فإن الأمر يختلف بالنسبة للأجهزة النفسية ، حيث يعتبر السلوك والشخصية محصلة لتفاعل مجموعتين من العوامل ، المجموعة الفسيولوجية والبيولوجية من ناحية ، والمجموعة الثقافية والاجتماعية من ناحية أخرى ، وهي ليست واحدة عند جميع الأفراد . ومن هنا كان من الصعب أن يحدد علماء النفس « مثالا » أو « نموذجا » للسلوك السوي ، أو الشخصية السوية ، ويترتب على ذلك أنه لا توجد صورة واحدة للسواء في المجال النفسي .

والحقيقة أن الحدود ليست واضحة تماما بين الصور السوية والصور اللاسوية من السلوك في حالات كثيرة ، نتيجة لتباين المواقف الفردية واختلاف الثقافات وتطورها ، والتغير الذي يحدث في الأنساق القيمية للمجتمع . ولكن صعوبة التمييز بين السلوك السوي والسلوك غير السوي لم تمنع العلماء ـ لأهمية هذا التمييز نظريا وعمليا كما أسلفنا ـ من محاولة وضع محكات لإجراء هذا التمييز .

وسنعرض في الدراسة الحالية لأهم المحكات المقترحة المستخدمة في التمييز بين السلوك السوي والسلوك غير السوي ، ونبين مدى كفاءتها ، ثم نحاول أن نستنبط محكا مميزا بين السلوك السوي والسلوك غير السوي من الدين الإسلامي ونبين المباديء والأسس التي يقوم عليها هذا المحك .

وعل هذا تتحدد أهداف الدراسة الحالية بالاجابة عن التساؤلات التالية :

ـ ما أهم المحكات التي تستخدم في التمييز بين السلوك السوي والسلوك غير السوي ؟
ـ ما هي معالم المحك المميز بين السلوك السوي والسلوك غير السوي في الإسلام ؟
ـ إذا كان في الامكان استنباط مثل هذا المحك . فما الأسس والمباديء التي يقوم عليها ؟
ـ وإذا كان في الامكان استنباط مثل هذا المحك فما هي خصائصه ومميزاته ؟

وتحدد محاولة الاجابة على هذه التساؤلات خطة الدراسة . حيث سنعرض لأهم المحكات النظرية والعملية (الاجرائية) المستخدمة في هذا المجال ، ثم نتعرض للمحك الإسلامي مبتدئين بالأسس والمباديء التي يقوم عليها ، ممثلة في نظرة الإسلام إلى الكون والانسان والمجتمع والأخلاق ، وخصائص التشريع الإسلامي بصفة عامة ، ثم نتعرض لمعالم هذا المحك وخصائصه ومميزاته .

ثالثا : المحكات النظرية في التمييز بين السلوك السوي والسلوك غير السوي :

وهذه هي أهم وأشهر المحكات النظرية التي اقترحها علماء النفس للتمييز بين صور السلوك السوية وصور اللاسوية .

١ ــ المحك الذاتي Subjective Criterion

ويمتد هذا المحك إلى آراء الفيلسوف اليوناني السوفسطائي بروتاجوارس الذي ذهب إلى أن الانسان مقياس كل شيء (كامل ، ١٩٨٢ ، ٢٩٢ ـ ٩٣) . ولكن هذا المحك هوالشائعالآن بين الأفراد العاديين ، أو ما نسميه « رجل الشارع » (Layman) فمن الطبيعي أن هذا الفرد عندما يريد أن يحكم على سلوك ما بالشذوذ أو بالسوية أن يعود إلى إطاره المرجعي* .

ولذلك فإن هذا المحك ذاتي أو شخصي ، لأنه يعتمد على الأطر المرجعية للأفراد ، ومع ذلك فإنه يصلح في بعض الحالات كمحك جيد في التمييز بين الصور السوية والصور اللاسوية من السلوك ، حيث أنه يتضمن جزءا لا بأس به من الموضوعية رغم ذاتيته . لأن الاطار المرجعي لأي فرد يتشابه في الكثير من ملامحه مع الاطار المرجعي العام للجماعة . فالأفراد الذين ينشأون في بيئة واحدة ويتعاملون على أساس ثقافة واحدة ، يجدون أن هذه الثقافة تصنف كثيرا من أساليب السلوك باعتبارها أساليبا مقبولة أو مرغوبة ، وتصنف أساليب أخرى كأساليب غير مقبولة أو غير مرغوبة .

ولكننا يجب ألا ننسى أن الأحكام التي تصدر على أساس المحك الذاتي ، تتعرض في الكثير من الحالات للتشويه والتحريف ، وذلك بحكم دوافع الفرد وإتجاهاته وعلاقاته بالآخرين ، خاصة في المواقف التي لا يكون فيها الفرد في موقف حيادي . ولذلك فإن هذا المحك إذا كان يصلح لإصدار أحكام السوية واللاسوية في بعض مواقف الحياة العامة ، فإنه لا يمكن الركون إليه باعتباره محكا علميا دقيقا .

٢ ــ المحك الإحصائي Statistical Criterion

يكاد المحك الاحصائي أن يكون الصياغة الرقمية لما هو سائد بين الناس ، ويعتمد المحك الاحصائي على درجة تكرار السلوك وشيوعه بين أفراد الجماعة . فالسلوك الذي يصدر عن أكبر

---

* ويستخدم مصطلح « الاطار المرجعي Frame of Reference بنفس المعنى الذي يعنيه علماء النفس الاجتماعي باعتباره مفهوما يشير إلى كل العوامل الذاتية والموضوعية التي تحدد إدراك الفرد لموضوع ما .

مجموعة من الأفراد يكون سلوكا سويا ، أما السلوك الذي يصدر من جانب أفراد قليلين فهو سلوك غير سوي . وتظهر صلاحية هذا المحك أكثر ما تظهر في الجوانب الجسمية ، لأنها بعيدة عن المعايير الاجتماعية والمسئولية الخلقية للأفراد ، أي أنها قضايا محايدة بالنسبة للأخلاقيات والقيم وأس التفضيل التي يعتنقها أفراد الجماعة . فإذا إفترضنا أنه في مجتمع ما يتراوح طول الرجل ما بين ١٦٥ ـ ١٨٥ ، فهذا يعني أن معظم الرجال في هذا المجتمع تقع أطوالهم في هذا المدى ، ويحكم عليهم لذلك بأنهم أسوياء . أما أفراد المجموعتين المتطرفتين ـ وهم بالطبع قلة ، لأن توزيع الأطوال يتبع المنحنى الاعتدالي ـ فإنهم يعتبرون شواذا أو لا أسوياء ، لأنهم منحرفون عن المتوسط .

فإذا انتقلنا من الجوانب الجسمية إلى الجوانب الأخرى العقلية والانفعالية والاجتماعية ، فسنجد أن المحك الاحصائي محك غير دقيق . ففي حال تطبيق هذا المحك في الذكاء فسنجد أن الغالبيةالعظمىمن الأفراد تقع في منطقة الذكاء المتوسط ، بينما تكون هناك أقليتان ، واحدة فوق المتوسط ،وهم مرتفعو الذكاء والعباقرة ، والأخرى أقل من المتوسط ، وهم فئة المتأخرين عقليا . وتطبيق المحك الاحصائي في هذه الحال يعني أن كلا من سلوك العبقري وضعيف العقل يقع ضمن دائرة السلوك الشاذ .

وإذا كان مقبولا أن نسم سلوك الأغبياء وضعاف العقل بالشذوذ ، فإنه مما يثير اللبس أن نصف سلوك العباقرة بالشذوذ واللاسوية . وهو ما يمكن أن يحدث أيضا عندما نطبق المحك الاحصائي في الجوانب الانفعالية والاجتماعية . ففي مقاييس الشخصية يصبح أصحاب التقديرات العالية وأصحاب التقديرات المنخفضة من الشواذ وغير الأسوياء ، فهل يمكن اعتبار اصحاب التقديرات المتطرفة (المرتفعة والمنخفضة) في أحد المقاييس التي تقيس بعد العصابية ـ قوة الأنا من الشواذ ؟ إن هذا يعني أن كلا من أصحاب الأنا القوية وأصحاب الأنا الضعيفة من غير الأسوياء . وكذلك يكون الحال مع الحاصلين على درجات مرتفعة ودرجات منخفضة على مقياس القلق . وطبقا لذلك فنحن نضع في سسلة واحدة الذين يحصلون على درجات عالية في مقايس القيادة (القادة) والذين يحصلون على درجات منخفضة في نفس المقياس (الأتباع) .

وبناء على هذا فإن استخدام المحك الإحصائي يثير اللبس في بعض الجوانب ، بل ويعتبر مقياسا مضللاً في جوانب أخرى . لأننا نستخدم المحك أصلا لتمييز السلوك اللاسوي عن السلوك السوي ، وليس لتحدد ظواهر الانحراف عن المتوسط مجردة من المعنى والدلالة الاجتماعية والخلقية .

٣ ـ محك التكيف الشخصي Personal Adjustment Criterion

حياة الانسان محاولات مستمرة لإشباع حاجاته الشخصية ، ولإقامة علاقات مسنجمة مع البيئة . وعندما يتعامل أحد الأفراد مع مشكلاته بكفاءة يقال أنه حسن التكيف ، لأنه استطاع أن يتقابل أو يتواءم بنجاح مع كل من مطالبه البيولوجية الداخلية ، ومطالب البيئة الاجتماعية الخارجية . أما إذا فشل في مواجهة مشكلاته فإننا نصفه بأنه سيء التكيف . ويفصح سوء التكيف عن نفسه من خلال مظاهر القلق والإحباط والتهور وبعض الأعراض الأخرى .

ورغم أن هذا المحك معترف به من جانب كثير من العلماء لأنه سهل التطبيق على المستويين البيولوجي والاجتماعي ، إلا أن هذا المحك يبدو ناقصا أو قاصرا ، لأنه لا يجعل هناك مرجعا لتحقيق الفرد لإمكانياته . فالعبقري أو الشخص المتفوق عقليا الذي يقضي كل وقته في القيام بأعمال روتينية عادية يستطيع أن يقوم بها أي فرد آخر لا يبدي بذلك سلوكا صحيا أو سويا ، سواء من الناحية الشخصية أو من الناحية الاجتماعية ، ولا يغير من الموقف شيئا أن هذا العمل قد يشبع المطالب البيولوجية الأساسية للفرد .

كذلك من الانتقادات التي توجه إلى هذا المحك أنه يغفل دور الفرد في الجماعة والدلالة الاجتماعية والخلقية لسلوكه . فكيف نحكم على سلوك السياسي المنحرف أو التاجر غير الأمين . فكلاهما قد يكون ناجحا وسعيدا وحسن التكيف من وجهة نظره . ولذلك فإن الاقتصار على محك التكيف الشخصي لا يعتبر كافيا في مجال الحكم على السلوك أو تقييمه على بعد السوية ـ اللاسوية .

٤ ـ محك تكامل الشخصية Personality Integration Criterion

يشير هذا المحك إلى كلية السلوك أو إلى تكامل الشخصية . ويشير مفهوماً الكلية والتكامل إلى العمل بتوافق وانسجام بين مكونات جهاز الشخصية من ناحية والعمل بتوافق وانسجام بين جهاز الشخصية والبيئة من ناحية أخرى . ويتبدى هذا التكامل على المستوى السيكولوجي على صور كثيرة منها :

ـ التوافق بين الفكر والمشاعر والعمل .
ـ التحرر من الصراعات الداخلية الشديدة .
ـ عدم استخدام الميكانزمات الدفاعية الجامدة .
ـ الانفتاح على الخبرات الجديدة وتقبلها .

ويستخدم كثير من العلماء مصطلحي التكيف والتكامل كما لو كانا مصطلحين مترادفين . ولكن الحقيقة أن هناك فرقا بينهما . فقد يظهر الفرد درجة منفخضة من تكامل الشخصية ، ولكنه لازال حسن التكيف ، وذلك إذا كانت البيئة تطلب منه الحد الأدنى من المطالب . مثل الشاب المدلل الذي يعيش في كنف والديه ، ويتمتع بعطفهما ورعايتهما الكاملة ، ويستكين إلى هـذه الحماية الأسرية . فهذا السلوك لا يدل على النضج أو التكامل ، وإن كان الفرد نفسه حسن التكيف .

ومحك التكامل وحده لا يعتبـر كافيـا في كل المـواقف في الحكم بالسـواء أو اللاسـواء على السلوك ، لأن هناك أكثر من سبيل للتكامل في الظروف المختلفة . فعلى سبيل المثال ، يعتبر سلوك « التبلد الانفعالي » (Fmotional Datachment) ، والذي قد يلجأ إليه الفرد المتعقل ، أو الذي يمر بمحنة شديدة ، سلوكا سويا ، لأنه يجنب صاحبه الاضطراب العقلي أو الموت في هذا الموقف ، وهو ليس كذلك إذا نظرنا إليه مجردا . أي أن هذا السلوك الذي يعتبر غير سوي في أصله ـ لأنه يشير إلى عدم التكامل ـ هو أنسب الأساليب السلوكية « وأكثرها سواء » في موقف معين .

وعلى ذلك فإن محك التكامل ليس كافيا ، ولابد من محكات أخرى اضافية معه لنقرر ما إذا كان نمط معين من تكامل الشخصية يعبر عن سواء السلوك أم لا ؟

٥ ــ المحك الاجتماعي Social Criterion

إن قدرا كبيرا من السوية أو اللاسوية يتوقف على ما إذا كان هذا السلوك يدعم أو يعيق حاجات المجتمع وأهدافه أم لا . فسلوك المجرم الناجح ليس سويا لأنه يضر بصالح الجماعة . وعلى هذا يجب أن يتضمن المحك الصحيح لسواء السلوك الجانب الاجتماعي . ويعتمد المحك الاجتماعي على أن الأفراد لا يعملون فقط على أن يتكيفوا في البيئة التي يعيشون فيها ، بل عليهم أن يعملوا في سبيل بناء وتدعيم القيم والأهداف والأنشطة الخاصة بالجماعة .

ويقوم المحك الاجتماعي على أساس القبول الاجتماعي . فالسلوك الذي يتفق مع « المعايير الاجتماعية » (Social Norms) يكون سلوكا سويا ، أما السلوك الذي لا يتفق مع هذه المعايير فهو سلوك شاذ أو غر سوي ، والمعيار الاجتماعي وكما قدمه مظفر شريف ـ مفهوم يشير إلى مايقبله المجتمع من قواعد وعادات واتجاهات وقيم ، وغيرها من العوامل التي تحدد سلوك الأفراد ، بل أن هذه المعايير أداة في يد المجتمع يستخدمها كوسيلة ليوحد بها أفراده ، ويزيد من تماسكهم .

والمحك الاجتماعي من أشهر المحكات التي تستخدم في تحديد سوية السلوك . ذلك لأن المجتمع لا يقبل إلا السلوك الذي يكون في صالحه ، أي في صالح مجموع أفراده ، وفي نفس الوقت يرفض أي سلوك يهدد تماسكه واستقراره . ومن هنا فالجريمة سلوك شاذ لأنها تضر بتماسك المجتمع واستقراره . وتقوم التعاليم الدينية ـ خاصة في المجتمعات الشرقية ـ بدور كبير في تحديد المحكات الاجتماعية ، لأن تماسك المجتمع واستقراره يعتمد في جزء كبير منه على الدين .

ولكن النقد الذي يمكن أن يوجه إلى المحك الاجتماعي ، هو أن المجتمع ـ في بعض فترات الضعف ـ قد يتسامح إزاء ألوان من السلوك كان يعارضها بشدة فيما مضى كما تحدث هذه الظاهرة أيضا وبصورة أكبر ، في سياق عملية التغير القيمي التي تقع في اطار التغير الاجتماعي ، حيث تختفي بعض القيم وتحل محلها قيم جديدة . ومع مقاومة القيم القديمة ـ التي يتمسك بها الآباء ـ للاختفاء ، ومحاولة القيم البديلة الحصول على القبول الاجتماعي ـ معتمدة على اعتناق الأبناء لها وتمسكهم بها ـ يكون ما هو مقبول عند الأبناء مرفوض عن الآباء ، وما هو سوى عند الآباء قد لا يكون كذلك عند الأبناء . وكمثال على التغيرات الاجتماعية المرتبطة بالقيم الخلقية تقبل المجتمع العربي لتعليم الفتيات حتى الجامعة ، وهي أمور كان يعارضها بحزم حتى بدايات القرن العشرين .

ومن الانتقادات الشديدة التي توجه إلى المحك الاجتماعي ، أن المجتمع نفسه قد يتعرض لبعض الظروف تخرجه من حدود السوية ، وبحيث يمكن اعتباره مجتمعا مريضا في هذه الحال ـ وبالتالي فإن ما يقبله هذا المجتمع ويعده سويا لا يكون بالضرورة كذلك . فالمجتمع في هذه الحال يجري عليه ما يجري عل الأفراد من صحة أو مرض . ويحدثنا القرآن الكريم عن قوم لوط الذين كانوا يفضلون السلوك الجنسي المثلي على السلوك الجنسي الغيري أو الطبيعي أو السوي . وقد حاول سيدنا لوط أن يثنيهم عن هذا السلوك إلى السلوك القويم دون جدوى .

﴿ ولوطا إذا قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ﴾ « النمل ـ ٥٤ »

﴿ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ﴾ « الأعراف ـ ٧ » .

﴿ إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ « العنكبوت ـ ٢٨ »

وتطبيق المحك الاجتماعي في هذا الموقف يعني الحكم على السلوك النسي المثلي بالسواء ، لأنه السلوك الذي يفضله المجتمع ، وعلى السلوك الجنسي الغيري بالشذوذ لأنه السلوك الذي يرفضه المجتمع . كذلك فإن أصحاب الدعوات الإصلاحية ، بل والأنبياء والرسل كانوا

مغايرين في بداية دعواتهم . وقبل أن تشيع دعواتهم وتنتشر كان ينظر إليها باعتبارها آراء مارقة وشاذة من قبل غالبية أفراد المجتمع . لمخالفتها لما يؤمنون به ، وتؤمن به الجماعة .

ومما يدل على عدم سلامة أحكام المجتمع دائما ، استنكاره لما سبق أن آمن به من آراء ، وما قبل به من سلوكيات . كما حدث في المانيا قبل الحرب العالمية الثانية ، حيث تقبل المجتمع الألماني الدعوة النازية وتحمس لاتجاهاتها العنصرية ، وهي إتجاهات عاد واستنكرها الألمان بعد ذلك ، بل وكفّروا عن اعتناقها . وبـذلك يتضـح أن المحك الاجتمـاعي ـ مع انتشـاره وشيوعـه في الاستخدام ـ مثل غيره من المحكات لا يتصف بالدقة الكافية .

٦ ــ محك نمو الفرد وصالح الجماعة :

Individual Development And Group Well-Being

وصاحب هذا المحك هو جيمس كولمان . وقد صاغه محاولا أن يتجنب أوجه النقص في المحكات السابقة ومستفيدا من الانتقادات التي وجهت إليها . ويـذهب هذا المحـك إلى أن السلوك السوي هو الذي يتفق مع نمو الفرد Individual Development وصالح الجماعة Group Well-Beigh في نفس الوقت . والسلوك غير السوي هو السلوك الذي لا يحقق أي الجانبين أو كليهما . ويتمثل نمو الفرد في تحقيق إمكانياته إلى أقصى درجة ممكنة ، على أن يتسق هذا النمو مع صالح الجماعة وتقدمها .

ويقول كولمان أن صياغة المحك على هذا النحو يمدنا باطار عمل أوسع يسمح لنا أن ننتهي إلى تعريفات أكثر تحديدا للطبيعة الانسانية ، وللسمات المميزة للانسان ومتطلباته أو حاجاته . وعلى ذلك فإن هذا المحك يتضمن مفاهيم كـالتكيف والتكامـل والنضج وتحقيق الامكانيات وصالح الجماعة . كما أنه لا يقف عند حد الاهتمام بتكيف الفرد مع المجتمع ، ولكنه يتعدى ذلك إلى الاهتمام بالظروف التي تهيء لحدوث هذا التكيف ، والتي توفر للفرد حرية الحركـة وتحقيق الامكانيات .

ومن وجهة نظر هذا المحك ينطبق وصف الشذوذ على كثير من أساليب السلوك التي تعبر عن سوء التكيف مثل إدمان الكحوليـات ، الممارسـات غير الخلقيـة في مجال السيـاسة وفي مجـال التجـارة ، جناح الأحـداث ، التمييز العنصـري ، الأعصبة ، الأذهنـة ، إدمان العقـاقير ، الانحرافات الجنسية ، وحتى القرحة المعدية Peptic Ulcers . فكل مظاهر سوء التكيف على المستويات البيولوجية أو السيكولوجية أو الاجتماعية التي يمكن أن تعوق نمو الفرد المتمثل في تحقيقه

لامكانياته ، أو تعوق :صالح الجماعة وتقدمها تندرج في فئة السلوك غير السوي ، حسب هذا المحك (Coleman, 1964, 19) .

ويترتب على استخدام هذا المحك في المجال الكلينيكي ، بعض التطبيقات ، خاصة في عمليات التشخيص والعلاج والوقاية . ففي هذا المجال لا يتناول المعالج المريض بمفرده ـ ليجعله قادرا على التكيف مع الظروف الاجتماعية المحيطة به ـ بل أن عليه أن يهتم بالظروف الاجتماعية ، وإحداث تغيير فيها بما يتفق وأهداف العلاج ، إبتداء من تصحيح العلاقات الأسرية غير السوية ، وانتهاء بالعمل على تعديل الظروف الاجتماعية الأوسع ، والتي جعلت التكيف المطلوب صعبا أو مستحيلا .

ويبدو أن هذا المحك الذي قدمه كولمان محك دقيق ، لأنه حاول فيه أن يجعله شاملا للجوانب التي أغفلت في المحكات السابقة . وهو بالفعل من أكمل المحكات وأدقها . ولكن هذه الدقة على المستوى النظري فقط ، لأنه إذا كان كولمان يحاول من خلال هذا المحك تحقيق التعادل بين جانب الفرد وجانب المجتمع ، فإن الأمر يقابل في مجال التطبيق العملي بصعوبات كبيرة ، لعدم وضوح الحدود بين الفرد والمجتمع . فصيغة نمو الفرد وصالح الجماعة صيغة مقبولة ، بل ومرغوبة ، ولكن حين تضعها موضع التنفيذ تقابلنا مشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع ، أو تحديد حقوق الفردوواجباتهنحو الجماعة ، وحقوق الجماعة وواجباتها نحو الفرد .

فهذه العلاقة كما تحددها النظم والفلسفات الاجتماعية والاقتصادية في العالم تختلف اختلافا بيِّنا من شرقه إلى غربه ، مما يوحي بأنها لم تجد الحل الصحيح بعد . فالدول الاشتراكية تميل في فلسفاتها وتشريعاتها إلى تغليب جانب الجماعة على حساب الفرد ، على اعتبار أن صالح الجماعة وتقدمها ينعكس عل كل فرد فيها . وعندما تتعارض المصلحة العامة مع أية مصلحة فردية يضحي بالمصلحة الفردية في سبيل سيادة الصالح العام . أما في الدول التي تأخذ بالمنهج الرأسمالي فإنها تميل في فلسفاتها وتشريعاتها إلى تغليب جانب الفرد على حساب الجماعة ، بدعوة « الحرية الشخصية » و « الحقوق الفردية » . ولسنا في حاجة إلى ذكر أمثلة للتعادلية المفقودة بين الفرد والمجتمع سواء في ظل النظم الجماعية أو النظم الفردية .

رابعا : المحكات العملية (الإجرائية) في التمييز بين السلوك السوي والسلوك غير السوي :

هذه الصعوبات التي تواجهها المحكات النظرية عند التطبيق العملي جعلت بعض العلماء لا يعتمدون عليها ، ويوصون بدلا من ذلك بالاعتماد على بعض المحكات العملية الواضحة

والمباشرة . وعلى رأس هؤلاء كولمان نفسه ، الذي وجد أن محكه ـ رغم وجاهته النظرية ومعقوليته ـ يعصب استخدامه من الوجهة العملية في تبين الأساليب السوية من الأساليب غير السوية . وينتهي إلى القول « إن أفضل ما يمكن أن نفعله هو أن نقترح ثلاثة أنماط من الأسئلة ، على الكلينيكي أن يعتمد عليها في محاولته تقدير سوية السلوك أو لا سويته .

وتتعلق هذه الأسئلة بالعلاقة بين استجابات الفرد وبين حاجاته وقيمه من ناحية ، وبين استجاباته وبيئته من ناحية ثانية ، وبين استجاباته وتحقيق ذاته وصالح المجتمع من ناحية ثالثة . والأنماط الثلاثة من الأسئلة هي :

النمط الأول : **إلى أي حد تستطيع استجابات الفرد أن تمكنه من تحقيق الانسجام بين مختلف حاجاته من ناحية وأهدافه وقيمه من ناحية ثانية ؟**

ويتمثل هذا الجانب في الأسئلة الفرعية الآتية :

ـ هل الأهداف التي يعمل الفرد لتحقيقها أهداف جوهرية ؟

ـ هل يشعر الفرد بالثقة بالنفس في مواجهة المشكلات ؟

ـ هل يظهر الفرد قدرا كافيا من تقبل الذات المناسب ؟

ـ هل استخلص الفرد لنفسه نظاما قيميا مشبعا ؟

ـ هل الفرد متفتح لتقبل الخبرات الجديدة ؟

ـ هل الفرد متحرر من مشاعر النقص والدونية ؟

ـ هل الفرد متحرر من السلوك الذي يكشف عن الدفاعات الجامدة ؟

ـ هل سلوك الفرد متحرر من الصراعات الداخلية الحادة ؟

ـ هل الفرد متحرر من المشكلات الجنسية ؟

وإذا كانت الاجابة بنعم عن الأسئلة السابقة فإن سلوك الفرد يتسم بالسواء أما إذا كانت الاجابة بلا فإن السلوك يتسم باللاسواء . وعلى قدر الاجابات بالنفي تكون درجة اللاسواء ، من زاوية العلاقة بين حاجات الفرد وقيمه .

النمط الثاني : **إلى أي حد تستطيع استجابات الفرد أن تمكنه من أن يحقق الانسجام مع بيئته ؟**

ويتمثل هذا الجانب في الأسئلة الفرعية الآتية :

ـ هل يمكن اعتبار رأي الفرد في بيئته رأيا دقيقا ومعقولا ؟

ـ هل يملك الفرد الخبرة الفنية والمهنية اللازمة للممارسة الفعالة وسط الجماعة ؟

ـ هل يشعر الفرد أنه عضو فعال ومرغوب في جماعته ؟
ـ هل يستطيع الفرد أن يقيم علاقات مشبعة مع الآخرين ؟
ـ هل يستطيع الفرد أن يقدم العاطفة للآخرين وأن يتقبلها منهم ؟
ـ هل يخضع الفرد بصورة مقبولة ومعقولة لمطالب الجماعة (ولكنه في نفس الوقت على استعداد للتحرر والانطلاق في الفكر والعمل ، وأن يعمل بطريقة مستقلة بدون الحاجة الزائدة إلى القبول الاجتماعي ؟) .

فإذا كانت الاجابة بنعم عن الأسئلة السابقة فالسلوك يتصف بالسوية ، وأما الاجابات السلبية فتدل على اللاسوية من زاوية العلاقة بين الفرد وبيئته .

النمط الثالث : **إلى أي حد تسهم استجابات الفرد في تحقيق ذاته وفي نمو الجماعة وتقدمها ؟ ويتمثل هذا الجانب في الأسئلة الفرعية الآتية :**

ـ هل ينمو الفرد وينضج باعتباره فردا متميزا وكيانا مستقلا ؟
ـ هل لدى الفرد إحساس واضح بالكرامة ؟
ـ هل يتحمل الفرد مسئولية توجيه الآخرين ؟
ـ هل يستخدم الفرد امكانياته بطريقة بناءه في الاهتمامات التي تخصه ، وتلك التي تخص المجتمع ؟

والاجابة بنعم على هذه الأسئلة تشير إلى سواء السلوك ، أما الاجابة السلبية فتشير إلى سلوك غير السوي من زاوية نمو الفرد وتقدم الجماعة (Coleman, 1964, 18-19) .

وقد أدرك كثير من العلماء صعوبة اقتراح محك نظري قائم على التجريد وقنعوا بالمحكات العملية على طراز ما إقترحه كولمان . وانتهوا إلى ذكر عدد من المحكات شبيهه بما ذكرناه آنفا .

ومن البديهي أن مشكلة التمييز بين السلوك السوي والسلوك غير السوي لا تظهر في الحالات شديدة الاضطراب ، والتي يستدعي سلوكها التماس العلاج في المستشفيات ، سواء في الأقسام الداخلية أو في الأقسام الخارجية ، أو التردد على العيادات الخاصة وهم الأفراد الذين :

ـ يكونون مهددين للمحيطين بهم .
ـ يمكن أن يصيبوا أنفسهم بأذى شديد مثل الانتحار .
ـ ليس لديهم القدرة على القيام بشئونهم الخاصة .
ـ يكونون حملا ثقيلا على أسرهم .
ـ يكونون في حاجة إلى رعاية من نوع خاص ، لا تستطيع الأسرة أن توفره لهم .

فليس هناك مشكلة في الحكم على هذه الأساليب ، وإنما يتعلق الأمر بالصور الهينة أو البسيطة من الاضطراب حيث تكون الحدود غير واضحة بينها وبين الصور السوية .

وقد حاول « كول » وضع محكات لتلك الصور الهينة من السلوك غير السوي والتي تميزه عن السلوك السوي . وتقوم على أن السلوك غير السوي هو :

ـ السلوك الذي لا يمكن صاحبه من أن يقيم علاقات منسجمة مع الآخرين .

ـ السلوك الذي لا ينتهي بصاحبه إلى صيغة مشبعة لدوافعه المتعارضة .

ـ السلوك الذي لا يدل على أن صاحبه يدرك ذاته ، والعالم المحيط به ادراكا صحيحا .

ـ السلوك الذي لا يمثل أسلوبا بناء للعمل في البيئة الفيزيقية والبيئة الاجتماعية (Cole, 1970, 2-8) .

ومن الواضح أن المحكات التي وضعها « كول » تشير إلى بعض صور السلوك الشاذ أو اللاسوي ، ولكنها غير دقيقة أيضا « لأن المحك الصحيح يجب أن يدخل في اعتباره القيم الشخصية . ودرجة الاقتناع بها ، وإلا فبماذا نحكم على سلوك فرد يضحي بحياته في سبيل فكرة أو مبدأ يعتقد في صحته ؟ إن الحكم يحتاج إلى الاجابة على هذه الأسئلة أولا :

ـ هل لهذا السلوك صلة بالعلاقات المنسجمة مع الآخرين ؟ .

ـ وما هي طبيعة الدوافع التي أشبعت في هذا الموقف ؟

ـ وهل إدراك هذا الفرد للعالم يتماثل مع إدراكنا له ؟

ـ وهل تصرف هذا الفرد بطريقة بناءة في البيئة عندما سلك هذا السلوك ؟

هذه الأسئلة التي بنيت على أساس محكات « كول » تبين أن محك السلوك السوي لابد وأن يتضمن رضاء الفرد عن نفسه ، وتقبله لذاته ، وإقتناعه بما يعمل ، بجانب الأهداف الفردية والأهداف الاجتماعية » . (كفافي ، ١٩٨٤ ، ١٨ ـ ١٩) .

هذا عرض سريع لأهم المحكات النظرية (المجردة) والعملية (الاجرائية) التي تستخدم للتمييز بين السلوك السوي والسلوك غير السوي . ويتضح منه أنه ليس هناك محك كامل ، وما ينجح منها في موقف يفشل في آخر . وهو ما يجعل سلوكا معينا يعد من الأساليب السوية طبقا لأحد المحكات وضمن الأساليب غير السوية طبقا لمحك آخر . ولذا تراجع أدلة التشخيص النفسي من آن لآخر ، حتى تشمل كل الأساليب غير السوية حسب آخر التطورات التي تحدث في بناء المحكات . ولذا فقد أضيفت مجموعة التخلف العقلي إلى الطبعة الثانية من « الدليل الاحصائي والتشخيص للاضطرابات العقلية » الذي تصدره الجمعية الأمريكية للطب النفسي

(DSM-II) ، ولم تكن موجودة بالطبعة الأولى . ومن يراجع الطبعات المتتالية « للدليل الاحصائي الدولي لتصنيف الأمراض والإصابات » الذي تصدره منظمة الصحة العالمية يجد الفروق بين هذه الطبعات . وقد صدر من هذا الدليل تسع طبعات حتى الآن .

وهذا الاختلاف والتباين في الحكم على الأعراض كان وراءه دعوة « أوتوفينخل » في مؤلفه عن « نظرية العصاب في التحليل النفسي » إلى تصنيف الأمراض النفسية بحسب الميكانزمات العاملة وراءها ، لا بحسب الأعراض السلوكية ، حيث يمكن أن تكون الأخيرة مظللة ، وعرضة للتغير والتبدل من حيث هي إفصاح عن ديناميات المرض (فينخل ، ١٩٦٩ ، جـ ٢) .

وبعرضنا للمحكات المستخدمة في التمييز بين السلوك السوي والسلوك غير السوي وتقييم هذه المحكات نكون قد أجبنا على التساؤل الأول في الدراسة . وعلينا أن نتجه إلى الأسئلة الأخرى والخاصة بامكانية استنباط محك إسلامي وأسسه وخصائصه . وهو ما سنتناوله فيما يأتي :

خامسا : المحك الإسلامي للسلوك السوي أو محك التوازن :

The Islamic Criterion Or The Equilibrium Criterion

أ ــ تمهيد :

لقد رأينا أن الوصول إلى محك دقيق للتمييز بين السلوك السوي والسلوك غير السوي أمر ليس باليسير ومازال علم نفس الشواذ يبحث عن محك يتلافى عيوب المحكات السابقة ، فهل يمكن استنباط مثل هذا المحك من الإسلام ؟

ويبادر الباحث إلى القول بأنه يمكن استنباط محك للتمييز بين السلوك السوي والسلوك غير السوي من الإسلام . فالإسلام كعقيدة وشريعة ، لابد وأن يشتمل على معايير وأس للتفرقة والتمييز بين الأساليب السلوكية السوية والأساليب السلوكية غير السوية . ولكننا نعرف أن أي محك من هذا القبيل ، لابد وأن يستند بالضرورة على فلسفة معينة خاصة بالسلوك الانساني ، وبطبيعته وعوامله ومحدداته ، ولذا فإننا قبل عرضنا لمعالم المحك الإسلامي ، سنشير إشارة سريعة ، وفي عبارات موجزة تناسب حجم الدراسة إلى فلسفة الإسلام في الكون والانسان والمجتمع والأخلاق ، ثم نعرض لمميزات التشريع الإسلامي فيما يتعلق بالسلوك الانساني ، وهاتان الفقرتان تمثلان الأسس والمباديء التي يقوم عليها المحك الإسلامي . ثم نحاول أن نستنبط من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وأصول التشريع الإسلامي الأخرى بعض المؤشرات والأدلة التي تمثل عناصر صالحة لبناء محك إسلامي للسلوك السوي ، ثم نتحدث بعد ذلك عن خصائص هذا المحك .

ب ــ موقف الإسلام من الكون والانسان والمجتمع والأخلاق :

وسنحدد هنا الخطوط الرئيسية التي تمثل موقف الاسلام من هذه القضايا الأربع الأساسية في نقاط شديدة الايجاز كالآتي :

١ ــ الكون :

ــ الكون بيابسه ومائه وجباله وأنهاره وسهوله ووديانه وهضابه مخلوق لله . ﴿ **لقد خلقنا السموات والأرض في ستة أيام وما مسنا من لغوب** ﴾ (ق ـ ٣٨) .

ــ لم يخلق الله الكون عبثا ، ولكن خلقه لغايات محددة ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين** ﴾ (الأنبياء ـ ١٦) ﴿ **وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق** ﴾ (الحجر ـ ٨٥) .

ــ الدنيا في الإسلام ليست دار شقاء وعذاب . ولكنها دار إستمتاع في حدود ما أحل الله ﴿ **قل من حرم زينة اله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق** ﴾ (الأعراف ٣٢) .

ــ حياة الانسان على الأرض نهائية ، بل هي منتهية بالموت ، ويليها حياة أبدية حيث الثواب والعقاب على أفعاله في الدنيا ﴿ **إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾ (ص ـ٢٦) .

ــ القوى الطبيعية في الكون مسخرة لخدمة الانسان ، إن هو إستخدم عقله في هذا السبيل ﴿ **ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون** » (الأعراف ـ ١٠) .

ــ الكون ليس جامدا ، بل هو دائم التغير والتبدل ، يسير في ذلك على سنن لا تحيد ونظام لا يخطيء ﴿ **يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار** ﴾ (النور ـ ٤٤) .

٢ ــ الانسان :

ــ الانسان ، كأحد مفردات الكون ، مخلوق لله عز وجل ﴿ **ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين** ﴾ (المؤمنين ـ ١٢) .

ــ خلق الله الانسان من مادة وهي الطين ثم نفخ فيه من روحه ﴿ **إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** ﴾ (ط ـ ٧١ ، ٧٢) .

ــ إذا كان الله قد وهب الانسان شيئاً من روحه فقد كرمه وفضله على سائر الكائنات ﴿ **لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم** ﴾ (التين ـ ٤) .

ــ خلق الله الانسان لخلافته في الأرض ولعمارة الكون . يسير في ذلك هلى هديه وتعاليمه لا يبتغي إلا وجهه ﴿ **وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون** ﴾ (الذاريات ـ ٥٦) .

ـ إذا كان الله قد خلق الانسان من طين، ثم نفخ فيه من روحه ، فقد أصبح للانسان جوانبه الروحية وجوانبه المادية ، وحياته بعد ذلك تتراوح بين هذين القطبين .

ـ طبيعة الانسان محايدة ، وهو يولد على الفطرة وليس هناك أفكار أثمة أو أوزار يتحملها عن الآخرين ﴿ **كل مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يمجسانه أو يهودانه أو ينصرانه** ﴾ (صحيح) .

ـ الأساس في تكليف الانسان الاستطاعة ﴿ **لا يكلف الله نفسا إلا وسعها** ﴾ (البقرة ـ ٢٨٦) ويرتبط بمدأ الاستطاعة إعتراف الاسلام بالضعف البشري . ﴿ **الآن خفف عنكم وعلم أن فيكم ضعفا** ﴾ (الأنفال ـ ٦٦) . ويتعامل معه في هذه الحال معاملة خاصة ﴿ **رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه** ﴾ (متفق عليه) .

ـ الارادة عنصر أساسي في الطبيعة الانسانية ، وهي بذلك أساس الحرية والمسئولية .

ـ الانسان يشر لا هو بالمنزه عن الخطأ ، ولا هو بالمنغمس فيه . وإن كان يستطيع بإرادته أن يقترب من أو يبتعد عن الصواب أو الخطأ ، الخير أو الشر ، وهو محاسب على ذلك في دينه وفي آخرته . ﴿ **أيحسب الانسان أن يترك سدى** ﴾ (القيامة ـ ٣٦) .

ـ يعترف الاسلام اعترافا كاملا بالدوافع البشرية ،لا يأنف منها ولا يستنكرها . وكل ما يفعله أنه ينظمها للفرد ، ضمانا لاشباع الغير .

ـ خلق الله الانسان وجعله خليفته في الأرض وطالبه بتعميرها ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ (البقرة ـ) .

٣ ـ المجتمع :

ـ يهتم الاسلام إهتماما كبيرا بتماسك المجتمع واستقراره ، ويعمل على حمايته .

ـ الفرد في الإسلام مطالب بمراعاة حقوق أخيه المسلم وأن يحفظه في نفسه وفي ماله وفي عرضه ﴿ **كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه** ﴾ (متفق عليه) ﴿ **المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا** ﴾ (متفق عليه) .

ـ الفرد في الاسلام مطالب بأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأن يكره له ما يكره لنفسه ﴿ **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** ﴾ (متفق عليه) .

ـ يعتبر الاسلام كل سلوك إيجابي من جانب الفرد نحو جماعته سلوكا بناء ، يثاب عليه ، باعتباره صدقه . أن يميط الأذى عن الطريق صدقه . وأن يأمر بالمعروف صدقه . وأن ينهي عن منكر صدقه ، وأن يحمل الرجل الضعيف على دابته صدقه . وأن يصلح بين اثنين صدقه . وأن يبتسم في وجه أخيه صدقه . وأن يقول كلمة طيبة صدقة .

ـ المسلم مطالب بكثير من أساليب السلوك التي تقوى تماسك المجتمع ، وتؤكد على الروابط في الجامعة . « فالتحية في الإسلام . . والمصافحة عند اللقاء ، والتزاور والتهادي ، وعيادة المريض ، وتعزية المصاب ، وصلة الأرحام ، وإحسان الجوار ، وإكرام الضيف ، وحسن الصحبة في السفر والحضر ، والبر باليتامى والمساكين وابن السبيل » . (القرضاوي ، ١٩٧٧ ، ص ١٤٠) وغير ذلك من الأساليب السلوكية الاجتماعية ، هي التي جعلت الشعور الجماعي والتفكير الجماعي جزءا لا يتجزأ من حياة المسلم .

٤ ـ الأخلاق :

ـ يهتم الإسلام إهتماما بالغا بمباديء الأخلاق . ويعتبر الرسول قدوة للمسلمين في هذا الصدد . وقد وصفه الله تعالى بأنه على خلق عظيم . ويقول الرسول « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (متفق عليه) .

ـ يعلي الإسلام من قيمة العنصر الأخلاقي في الحياة . والفرد المسلم مطالب بتحري العدل والاحسان في تعاملاته ، ومطالب بأن يؤتي ذوي قرباه ، وبأن يبر بالوالدين وهو منهي عن الفحشاء والمنكر والبغي . ومنهي كذلك عن الكذب في الحديث ، والخلف في الوعد ، والخيانة في العهد ، ومنهي عن الربا وأكل مال اليتيم .

ـ يحدد الإسلام مجموعة من الآداب تراعي عند ممارسة العادات اليومية كعادات الأكل والشرب ، والنوم ، والتيقظ ، واللباس ، والزينة ، والجلوس ، والمشي ، والزيارة ، والاستئذان ، والتحية ، واللقاء ، والحديث .

ـ يقف الإسلام بحزم في وجه أساليب السلوك السلبية الموجهة ضد الذات أو الغير أو المجتمع ، ويقيم عليها الحد وهي القتل ـ السرقة ـ الزنا ـ شرب الخمر ـ الردة ـ الافساد في الأرض . وترك تحديد عقوبة بعضها إلى أولي الأمر في المجتمع وهي جرائم التعزيز وترك أمر جرائم ثالثة إلى الله إن شاء عاقب صاحبها في الدنيا أو في الآخرة ، وهي جرائم ليس لها جسم جريمة ، ويتعذر إثباتها وهي الآثام الباطنة مثل الحقد والحسد والغيرة والنميمة والغيبة والاسراف في الشح والتطير والكبر وغيرها .

ـ القيم الخلقية في الاسلام نوعان : قيم أساسية وهي القيم المرتبطة بأصول التشريع وتبين لنا الصواب من الخطأ ، والخير من الشر ، والحلال من الحرام ، وهي قيم مطلقة وثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان ، ولا مجال للاجتهاد فيها كالصدق والوفاء والأمانة والقيم الأخرى وهي القيم الاصطلاحية ، وهي المرتبطة بأمور الناس وأحوالهم في المعيشة ، وهي تتغير بتغير الظروف والأحوال ويقول الرسول « **أنتم أعلم بشئون دنياكم** » (متفق عليه) .

جـ ـ مميزات التشريع الإسلامي :

الإسلام دين الفطرة ، فطرة الله التي خلق الناس عليها ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . فهو ـ كما ذكرنا ـ يعترف إعترافا كاملا بدوافع الانسان ولا يستنكرها ، وإنما ينظمها . ويتعامل الإسلام مع الإنسان طبقا لطبيعته ، حتى أن بعض المفكرين لا يرى فرقا بين النزعة الإسلامية والنزعة الإنسانية . ويوحد بين القيم الإسلامية والقيم الإنسانية . ويساوي بين إسلامه وإنسانيته ، وذلك لأن شعوره بأن الاسلام هو دين الفطرة جعله لا يرى فارقا أو تفاوتا بين معالم الانسانية الصحيحة وبين تعاليم الدين. كما جاءت من مصادرها الأصلية (الغزالي ، ١٩٨٤ ، ص ٤٩) .

ويضمن التشريع الإسلامي للفرد كثيرا من الحقوق ، لم يمنحها له أحد ، وإنما هي مقررة من قبل الخالق ، وكأنها جزء من طبيعته ، كحق الحياة ، وحق الكرامة ، وحق حماية العرض ، وحق التفكير ، وحق التدين والاعتقاد ، وحق التعبير ، وحق التعلم ، وحق التملك ، وحق الكفاية من العيش ، وحق الأمن من الخوف .

ويستخلص بعض دارسي التشريع الإسلامي صفات معينة لهذا التشريع مثل : الربانية والإنسانية والشمول والوسطية والواقعية والوضوح والجمع بين الثبات والمرونة . (القرضاوي ، ١٩٧٧) . كما يوصف التشريع الإسلامي بأنه تشريع إنساني وأخلاقي وعالمي . وهو إنساني باعتبار أن الانسان هو مركز التشريع الإسلامي ، فالإنسان في جميع أحواله هو مصدر التشريع . وأخلاقي لأنه يهتم بالإنسان ويرعى كرامته ويعلي من قدره ويحول دون الإساءة إليه أيا كان جنسه أو لونه أو دينه أو حظه من العلم أو المال أو السلطان . ويعلي الإسلام من قيمة الضمير والأخلاق ويرتفع بهما إلى مستوى القانون . وهو عالمي لأنه دون جميع الرسالات لا يخاطب قوما بعينهم وإنما يخاطب الناس كافة (رضوان ، ١٩٧٥ ، ١٧٠ ـ ١٨٨) .

ويعتبر الفيلسوف الغربي « جارودي » أننا نشهد اليوم نفس الظروف التي كانت سائدة يوم ظهر الإسلام . ويقارن المفكر الفرنسي بين وضع الامبراطورية الفارسية والبيزنطية وبين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، ويرى أن الإسلام كما أنقذ العالم من الانحطاط الشامل يوم مولده ، فإنه الكفيل بإنقاذ العالم اليوم مما هو فيه من تفسخ وتخبط لأنه يحررنا من الخضوع للضرورة والصدفة الخارجية . لأن الإسلام لا يفرق بين العقيدة والعلم والتقنية ، بل يوحد بينهما في بنية واحدة متماسكة كما لا يفرق بين البحث عن القوانين والأسباب والبحث عن الغايات

والمعاني ، ولا يفرق بين الإيمان في الاقتصاد ولا في السياسة ، ولكن على العكس من ذلك فهو يوحدها في بنية واحدة ، وذلك أساسا عن طريق إرجاع كل ملك وكل مقدرة إلى الإله الواحد الأحد » . (جارودي ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧) .

ولنضرب مثلا يبين ما يتميز به التشريع الإسلامي عن غيره من التشريعات . وهو مفهوم الملكية . فالملكية في الدول الرأسماليةملكية خاصة للأفراد ، تزيدهم قوة وسلطانا على الآخرين ممن لا يملكون . وتتركز الثروة بحكم قوانين رأس المال والسوق الحرة في أيدي قلة تمارس ضغطا على الأغلبية ، وتسخرها لصالحها . كما أن الملكية في الدول الاشتراكية تصادر باسم الجماعة وباسم الدولة . ويتحكم في تصريفها الحكام ، وينادون بعدالة توزيعها ، ولكنهم في التطبيق العملي يفشلون في ذلك . أما الملكية في الإسلام فهي لله . فالمال مال الله . والإنسان مستخلف في إنفاقه فهو يكسب من حلال مقابل عمل ، وبدون إستغلال لجهد الآخرين أو حاجتهم ، وينفقه في حلال علىنفسه وعلى عياله وعلى أهله وذوي قرباه وعلى الفقراء والمساكين . والمسلم منهي عن التبذير والاسراف ، كما أنه منهي عن البخل وحبس المال ، لأن المال لابد وأن يدور دورته في الحياة الاقتصادية . فيكسب صاحب المال ، ويكسب الآخرون ويستفيد المجتمع . ولذا فللمال في الإسلام وظيفة إجتماعية ، وبذلك يحقق الإسلام في سياسة المال صالح الفرد وصالح المجتمع .

ولسنا هنا بصدد الحديث التفصيلي عن كل مميزات التشريع الاسلامي ، ولكننا نشير إليها بالقدر الذي يمهد للحديث عن معالم المحك الإسلامي للسلوك السوي . ونذكر بعض الأمثلة التي تبين تميز التشريعي الإسلامي عن غيره من التشريعات بالشمول والإنسانية والواقعية ، فنضرب مثلا آخر يتعلق بمفهوم الجريمة ومعاييرها في الإسلام وفي غيره .

فالمحك القانوني العام المستخدم في العالم شرقه وغربه يعرف الجريمة بأنها « كل عمل يضر بالأمن العام أو نظام الحكم القائم » ويطبق هذا المعيار أو هذا المحك في المجتمعات الغربية من زاوية أن الجريمة بالدرجة الأولى هي الأعمال التي توجه إلى رأس المال وإلى مالكيه ، وماعدا ذلك فالمواطن حر ـ وهي حرية نظرية بالطبع ـ فيما يفعل . ويطبق هذا المحك في المجتمعات الإشتراكية من زاوية أن الجريمة بالدرجة الأولى هي الأعمال التي توجه إلى نظام الحكم وألى رجاله ، أو إلى السلطة وإلى حائزيها .

وطبقا لهذا المحك القانوني فإن الزنا لا يشكل جريمة إذا تم برضا الطرفين ، مع إدراك هذه النظم لأضرار الزنا على مستوى الأسرة ومستوى المجتمع . ولكن هذه التشريعات تحرم الزنا إذا

تم بالإكراه أو الإجبار ، والتجريم هنا ينصب على عنصر الإكراه وليس على فعل الزنا ذاته . والاستيلاء على أموال الغير لا يعتبر جريمة أيضا إذا حدث برضاء صاحب المال ، ولو تم ذلك بالتحايل ، لأن القانون لا يحمي المغفلين ، ولو حاول طرف ثالث التدخل لمنع التحايل أو الغش فإن فعله هو الذي يجرم باعتباره تدخلا في شئون الآخرين مما لا يعنيه . كذلك فإن الخمر ليست محرمة في هذه اتشريعات على الرغم من الاقتناع الكامل بأضرار الخمر ، حتى أن بعض هذه النظم حاول منعها ولكنه فشل ، بدعوى أن هذا المنع يدخل في باب « الحرية الشخصية » ولكن هذه التشريعات لا تجد مفرا من تجريم الأساليب السلوكية اللاجتماعية التي يرتكبها شارب الخمر ، وكأن المشرع هنا لا يرى العلاقة بين السبب والنتيجة أو العلة والمعلول فهو يسمح بشرب الخمر ، ولكنه يجرم السلوك الذي يتربت على شربها .

أما نظرة الإسلام إلى الجريمة أو إلى الأساليب السلوكية اللااجتماعية ، فهي نظرة أكثر معقولية وأكثر واقعية ، وهي نظرة لا تكتفي بتحريم السلوك بناء على لاسويته ، وإنما هي تدعو إلى اجتثاث الأسباب التي تؤدي إليه . بل وتعمل على توفير المناخ الصحي والملائم لنمو السلوك السوي . وليس هذا بالطبع مجال الاستفاضة في هذا الموضع .

د ــ معالم المحك الإسلامي السوي :

١ ــ مفهوم التوازن في المحك الإسلامي :

يقوم المحك الإسلامي في السلوك السوي على فكرة التوازن أو الوسطية بين الأطراف أو الأقطاب . والتوازن هنا لا يعني إحتلال نقطة متوسطة بين طرفين أو قطبين ، وإنما يعني الجمع بين مزايا الطرفين دون عيوبها . والتوازن هو السمة الرئيسية في المحك الإسلامي . حتى أننا يمكن أن نطلق على المحك الإسلامي « محك التوازن » (Eauilibrium Criterion) لأنه يعتمد على تحقيق التوازن بين جوانب النفس الانسانية ، ويوفق بين النزعات المتقابلة في الطبيعة البشرية من الخوف والأمل ، الحب والكره ، الواقع والخيال ، الجوانب الحسية والجوانب المعنوية ، رغبة الفرد في السيطرة ورغبته في الخضوع . كما يقوم على تحقيق التوازن بين الفرد من ناحية والمجتمع بمنظماته وهيئاته من ناحية أخرى ، بل ويقوم على تحقيق التوازن بين الفرد من ناحية والكون بأسره من ناحية أخرى .

ولكي نوضح كيف يحقق الإسلام التوازن بين الفرد والمجتمع ، فلنعرض مثالا يبين هذه العلاقة ، وهو عن موقف الإسلام من مسألة العمل . فكما سبق أن قلنا أن المال في الإسلام مال الله ، وهو لا يأتي إلا عن طريق العمل الشريف ، ودون استغلال لجهد الآخرين أو حاجتهم .

ولا يضع المجتمع أي قيود على حركة الفرد في العمل والكسب ، ولكنه مطالب أن يرعى في حركته أوامر الله ونواهيه ، وعليه بعد ذلك أن يطهر ماله بدفع الزكاة إلى بيت مال المسلمين . وبذلك لا يقف الإسلام في طريق الكسب الشخصي ، بل يتيح له الفرصة للنمو بلا حدود ، ولكنه الكسب الذي يأتي نتيجة للعمل الشريف الذي يفيء على الفرد وعل المجتمع . وبذلك يوفر الإسلام المناخ لتحقيق أعلى إنتاجية ، معتمدا على الحوافر الفردية عند الأفراد ، وفي نفس الوقت يضمن حق المجتمع من ناحيتين ، الأولى حينما يضع للفرد الحدود التي يجب أن يراعيها في عمله وكسبه ، والثانية حينما فرض عليه فريضة الزكاة . وهي ركن من أركان الدين ، كحق للمجتمع في مقابل إنتفاع الفرد من تعامله مع أفراد المجتمع ،في جو آمن تصان فيه أمواله، ويطمئن فيه على نفسه .

وبعد أن فرض الإسلام الزكاة شرع الصدقات التي قد يتطوع بها الفرد من تلقاء نفسه لإخوانه وأفراد مجتمعه . وتسجل كتب التاريخ أنه في فترات الإزدهار الإسلامي التي كان يطبق فيها شرع الله تطبيقا صحيحا ، كان بيت مال المسلمين مليئا بالأموال ، حتى أن المنادي كان ينادي على من له حاجة ، فلا يستجاب لندائه . ذلك أنه مجتمع راعى حق الله فأغناه .

هذا هو التوازن الدقيق بين الفرد والمجتمع ، تلك العلاقة المعقدة التي فشلت كثير من الأنظمة الأخرى على إيجاد صيغة مقبولة لها ، لا تهضم حق أحدهما لحساب الآخر . وقد استطاع الإسلام أن يحقق حاجات الفرد وطموحاته ومصالحه ، كما أنه ضمن في نفس الوقت مصالح المجتمع وحاجاته ومقتضيات نموه . وقد جنبت هذه الصيغة الإسلامية الناس مضار سيطرة رأس المال على الحكم ، وكذلك جنبتهم مضار التسلط باسم الجماعة ، وذلك عندما وضعت موضع التنفيذ في عصور الإسلام الزاهية .

٢ ــ جوانب من السلوك الإسلامي السوي القائم على التوازن :

وفي هذه الفقرة نشير ، في عبارات موجزة ، إلى بعض التوازنات التي تحكم السلوك السوي طبقا للمحك الإسلامي :

*** السلوك السوي في الإسلام وسط بين الجماعية والفردية :**

ــ الإسلام يلغي الحواجز بين الفرد والمجتمع ، فلا ينظر إلى الفرد إلا على أنه فرد في جماعه ، كما أنه لا ينظر إلى جماعة إلا باعتبارها جماعة مكونه من أفراد .

ـ أحكام القصاص في الإسلام تأمين لحياة الجماعة ، كذلك فإن الحدود قد شرعت لحماية الفرد وحماية الجماعة .

ـ الشعائر في الإسلام قد تؤدى بطريقة فردية ، وقد تؤدى في جماعة ، وصلاة الجمعة والعيدين وفريضة الحج ، بطبيعتها لا تؤدى إلا جماعة .

ـ إذا كان المسلم مطالبا بالانتماء إلى الجماعة ، فإنه مطالب أيضا بإعمال عقله وضميره في كل سلوك ، وحتى لو انتهى ذلك به إلى مخالفة الجماعة ، فالإسلام ينهي عن الأمعية ، وهي تقابل في المصطلح النفسي « المسايرة الآلية » (Automatic Conformity) ولذا فالمسلم مطالب بمقاومة ضغوط الجماعة عندما تنحرف عن شرع الله وعلى ذلك فالمسلم مطالب بأن يخاف الله ولا أحد سواه ، وألا يخشى في الحق لومة لائم . ويخاطب القرآن الرسول قائلا ﴿ **وتخفي في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه** ﴾ (الأحزاب ! ٣٧) .

* **السلوك السوي في الإسلام وسط بين الروحية والمادية :**

ـ يدعو الإسلام إلى التمتع بالطيبات في حدود ما أحل الله ، على ألا ينسينا ذلك حق الله وحق الآخرين علينا ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾ (القصص ـ ٧٧) .

ـ يوجهنا الرسول إلى أن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عباده .

ـ لا يقلل الإسلام من قيمة المال ، ولكن يحذرنا من فتنة المال والولد . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله** ﴾ (المنافقون ـ ٩) ، ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم** ﴾ (التغابن ـ ١٥) .

* **السلوك السوي في الإسلام وسط بين العبادة والعمل الصالح :**

ـ المسلم مطالب بأن يعمل وأن يتعبد ، بدون أن ينسيه أيهما الآخر ﴿ **فإذا قضيت الصلاة ، فانتشروا في الأرض ، وابتغوا من فضله ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ﴾ (الجمعة ـ ١٠) .

ـ الجهاد في سبيل الله عبادة ، والجهاد في الإسلام ليس القتال فقط ، بل يتسع مفهومه ليشمل ميادين الحق والعدل والخير . بل أن رعاية الوالدين أحدهما أو كلاهما جهاد في سبيل الله . والعمل الشريف لكسب الرزق الحلال جهاد في سبيل الله ، والمجاهرة بالحق جهاد ، ويقول الرسول « **أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر** » (متفق عليه) .

ـ يأمرنا الإسلام دائما بالعمل ، والعمل الصالح ، ويقترن العمل الصالح بالإيمان في أكثر من موضع في القرآن الكريم ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات . إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا** ﴾ (الكهف ـ ٤٠) . ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبارة ربه أحدا** ﴾ (الكهف ـ ١١٠) . ﴿ **ومن يعمل الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما** ﴾ (طه ـ ١١٢) . ﴿ **فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه** ﴾ (الأنبياء ـ ٩٤) .

* **السلوك السوي في الإسلام يجمع بين التطوع والالتزام :**

ـ تمثل الأركان الخمسة في الإسلام قمة الالتزام بالنسبة للمسلم . فالإسلام يلزم المسلمين بإتيان الأركان الخمسة لأنه لا يصح إسلامه إلا بآدائها . ومنها ما هو يومي كالصلاة خمس مرات في اليوم ، وصلاة جامعة أسبوعية ، ومنها ما هو سنوي كالصوم والزكاة ، ومنها ما يجب مرة واحدة بشرط الاستطاعة كالحج ، علاوة على الشهادتين وآداء هذه الأركان يعوِّد المسلم الالتزام .

ـ بجانب الأركان الملزمة هناك النوافل والسنن والأمور التطوعية من أعمال البر والخير فهي اختيارية ويثاب عليها المسلم .

ـ ليس هناك حد أقصى لما يستطيع المسلم أن يقوم به من أعمال الخير . وفي هذا فليتنافس المتنافسون ، ولكن كل حسب استطاعته ، لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها .

* **السلوك السوي في الإسلام يتحدد بالوازع الداخلي والوازع الخارجي :**

ـ يهتم الإسلام بتربية الضمير ، أو الوازع الداخلي عند الفرد ، ويعتبره الرقيب الحقيقي على أفعاله ، لأنه الرقيب الدائم والمصاحب .

ـ من الأمور التي تشرِّف الانسان أو تكرمه أن يتجنب السلوك الخاطيء بوازع داخلي وليس بسلطة خارجية كالحيوانات . فهو إذن يمتنع مكن تلقاء نفسه ، ولا يمنع بقوة خارجية .

ـ ولكن الإسلام يعمل حسابا للبعض الذين تغلبهم دوافعهم ، أو الذين لم ينم لديهم الضمير بدرجة كافية . فيقيم الوازع الخارجي رقيبا عليهم ورادعا لهم ليحميهم من أنفسهم دون يأس من إصلاح أمرهم وعودتهم إلى الصواب يوماما . وأن يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

* **السلوك السوي في الإسلام يجمع بين التواضع والعزة :**

ـ الإسلام يطالب المسلمين بأن يكونوا متواضعين لله وللناس ، ويصف القرآن المسلمين بقوله

﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا . وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ (الفرقان ـ ٦٣) .

ـ الإسلام يطالب المسلمين أيضا بأن يكونوا ذوي عزة ومنعة ﴿ **والعزة لله ورسوله والمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾ (المنافقون ـ ٨) .

ـ ليس هناك تعارض بين دعوة الإسلام للمسلمين بأن يكونوا متواضعين ودعوته لهم بأن يكونوا أهل عزة ومنعة . فالتواضع يجب أن يكون صفة عامة للمسلم ، مع الكبرياء وليس الكبر ، عندما يتعامل مع إخوانه ، أما القوة والعزة والمنعة ، وهي من صفات الله ، فإنها يجب أن تنتقل إلى المسلم في المواقف التي تحتاج إلى هذه الصفات ، مثل قتال الأعداء . وفي هذه الحال لا تكون القوة جبروتا ولا تكون العزة كبرا ، ولا تكون المنعة غطرسة . ولذا كان الرسول يقول للمسلمين في قتال المشركين « **رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة** » (متفق عليه) ويقول سبحانه وتعالى يصف العلاقات الداخلية بين المسلمين وعلاقتهم بالأعداء ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾ (الفتح ـ ٢٩) .

* **السلوك السوي في الإسلام توازن بين الحرية والمسئولية :**

ـ الانسان في الإسلام حر ، وليس لبشر عليه سلطان من أي نوع كان . وهو النظام الوحيد الذي لا يسلم فيه الانسان قيادة لإنسان مثله . ولا يغل حرية المسلم إلا ضميره وعقله . وبنى دخول الفرد في الإسلام على الحرية المطلقة ﴿ **لا إكراه في الدين . قد تبين الغي من الرشد** ﴾ (البقرة ـ ٥٦) . ويخاطب القرآن الرسول قائلا ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ (يونس ـ ٩٩) . ولم يكره المسلمون أهالي الأمصار التي فتحوها على الدخول في الإسلام .

ـ الإنسان في الإسلام مسئول أمام ضميره ، وأمام الناس ، وأمام أولي الأمر ، على ألا يسرق ، وألا يزني ، وألا يشرب الخمر ، وألا يقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وألا يرتد عن دينه بعد أن دخل فيه بارادته الحرة ، وألا يفسد في الأرض ، وتلك هي حدود الله . والمسئولية الفردية والجماعية ركن ركين من أركان السلوك الخلقي « فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (متفق عليه) ومن سن سنه حميدة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم الدين . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم الدين » (متفق عليه) .

ـ حدود الله ملزمة للحاكم كما هي ملزمة للمحكومين . وقد شرعت هذه الحدود لحماية الفرد وحماية المجتمع . وعلى الجميع أن يشعروا بالمسئولية الكاملة عن رعاية وحفظ خمسة أمور ،

وهي الدين والنفس والعقل والنسل والمال . وهي أساس الحدود « فقد شرع الجهاد وعقوبة الردة لدرء الضرر عن الدين . وشرع القصاص والديات لدرء الضرر عن النفس . وشرع حد شرب اللخمر لدرء الضرر عن العقل ، وشرع حد الزنا لدفع الضرر عن النسل ، وشرع تضمين قيم الأموال وقطع اليد لدرء الضرر عن المال » (حسب الله ، ١٩٧٦ ، ص ٣٣٤) . وهكذا يوفر الإسلام للفرد الحرية ، ولكنها حرية مسئولة . وعندما ربطت الدساتير الحديثة بين الحرية والمسئولية ، وشرطت كل منهما بالآخر ، كان الإسلام قد سبقها إلى تقرير هذه العلاقة بأكثر من عشرة قرون .

* **السلوك السوي في الإسلام توازن بين الثبات والتغير :**

ـ هناك ثوابت في الإسلام لا تتغير ، ولا تستقيم حياة المسلمين بدونها ، منها أداء الشعائر والعبادات والفرائض ، وتمثلها أركان الإسلام الخمس ، وهناك أيضا القيم الخلقية الأساسية التي يحض الإسلام المسلمين على التمسك بها مثل الصدق والوفاء والأمانة ، وهي قيم لم ولن تستغني عنها الانسانية لتعيش حياة فاضلة .

ـ وهناك أمور أخرى في الإسلام من المتغيرات . وهي التي تتعلق بأمور الناس في معاشهم وأحوالهم المتبدلة والمتغيرة . وقد تركها الإسلام للناس في كل زمان ومكان ، وهي التي قال الرسول بشأنها « أنتم أعلم بشئون دنياكم » (متفق عليه) .

ـ ليس هناك تعارض بين الثوابت والمتغيرات في الإسلام ، لأنه يجمع بين المباديء الأساسية التي تنظم حياة البشر وتحقق سعادتهم واستقرارهم ، وبين اعتبار الظروف المتجددة التي تطرأ على حياة الناس . ولذا فتح الإسلام باب الاجتهاد بجانب النصوص . فالنص هو محكم الآيات القرآنية وصحيح الحديث النبوي الشريق والقاعدة الأساسية أنه لا إجتهاد مع النص ، لأن النصوص حوت أساسيات العقيدة والشريعة للمسلمين . أما الأمور التي لم يرد فيها نص فان الباب مفتوح فيها للإجتهاد . أي أن التشريع الإسلامي المرن لم يقتصر على القرآن والحديث ، بل هناك مصادر أخرى للتشريع كالقياس والمصالح المرسلة والاستحسان . وقد أقر الرسول في حياته كثيرا من إجتهادات أصحابه ، التي كانت تواجه مواقف جديدة ، لأنهم كانوا يستلهمون فيها روح الإسلام التي توافق الطبيعة الانسانية ونداء العقل والمنطق والمصلحة . وبذلك وجه الرسول الكريم المسلمين إلى ضرورة الاجتهاد عندما لا يكون هناك نص .وقد كان للخليفة الأول أبو بكر الصديق إجتهاداته كما في حرب الردة وجمعالقرآن . وكذلك للخليفة الثاني عمر إجتهاداته . ومن إجتهادات عمر ابن الخطاب الشهيرة ابطاله سهم المؤلفة قلوبهم في الصدقات

مع وروده في القرآن . ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب . والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليكم حكيم** ﴾ (التوبة ـ ٦٠) . لأنه رأى أن المسلمين على عهده لم يكونوا في حاجة إلى تأليف قلوب أحد ، بل اعتبر أن إعطاء هذا السهم نوع من الضعف يأباه الإسلام . ومعروف أن عمر أبطل حد السرقة في عام المجاعة أيضا .

* **السلوك السوي في الإسلام توازن بين الإيجابية والسلبية :**

ـ الانسان في الإسلام مطالب بأن يكون إيجابيا مبادرا فعالا ، سواء في تعامله مع القوى الطبيعية في الكون . وقد سخرها الله له إذا استخدم عقله في تذليلها لراحته ولعماره الكون ، أو في تعامله مع إخوانه في الجماعة . فقد أمرنا الإسلام بالتواد والتراحم وعيادة المريض ، ونهى المسلم عن خصام أخيه المسلم لأكثر من ثلاث أيام ، ويعطي الفضل لمن يبدأ أخيه بالسلام . كما أن المسلم مطالب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن يشهد بالحق لا يخاف في ذلك لومة لائم . ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ (آل عمران ـ ١٠٤) .

ـ السلبية هنا لا تعني إتجاهات اللامبالاة أو عدم المسئولية أو الخمول والكسل ، ولكنها تعني الخضوع لله . وهي تقابل في الطبيعة الانسانية تلك الميول الماسوشية وهي ميول الخضوع واستخلاص اللذة من تحمل الألم والمشقة . والإسلام يربأ المسلم أن يعبر عن نزعاته الماسوشية نحو بشر مثله ، ويوجهها إلى خالقه ، محييه ومميته ، القادر على كل شيء .

ـ ليس هناك تعارض بالطبع بين النزعات الإيجابية والسلبية عند الفرد المسلم ، لأنها تقابل حاجات ونزعات في الطبيعة الإنسانية . وعلى الرغم من ذلك فالإسلام يلتقي ، في مطالبه للفرد المسلم ، مع النزعات الأصيلة في الإنسان . حيث يوجهه إلى أن يكون إيجابيا في كل شئون حياته ، في حدود أوامر الله ونواهيه ، كما أنه مطالب بالخضوع والاستسلام للقوة الخالقة مدبرة الكون . ومن معاني لفظة « الإسلام » أن يسلم الفرد قيادة لله . وفي هذا ، كما قلنا ، إشباع لدوافعه الماسوشية بأسلوب أرقى مما يحدث في النظم الأخرى .

* **السلوك السوي في الإسلام يجمع بين المثالية والواقعية :**

ـ الإنسان في الإسلام بشر ، وهذا يعني أنه ليس بالملاك ولا بالشيطان وإن كان يستطيع أن يرتفع بنفسه إلى مستوى أقرب إلى مستوى الملائكة ، كما أنه يستطيع أن يهبط إلى مستويات أقرب إلى مستويات الشياطين .

ـ الإنسان ـ مخلوق من طين . فهناك إذن جانب مادي له . ويتجسد هذا الجانب في الدوافع البيولوجية . وميل الانسان إلى إشباع هذه الدوافع يمثل واقعا . ولكن الانسان به شيء من روح الله أي أن له جانب روحي ، ويتمثل هذا الجانب في الوظائف العقلية والنفسية ، ودوافع تحقيق الذات والتزام الانسان بالمباديء الخلقية العليا في سلوكه يعتبر أمرا مثاليا .

ـ ليس هناك تعارض بين الجوانب الواقعية والجوانب المثالية عند الإنسان . فالإسلام كما سبق أن ذكرنا يعترف بدوافع الفرد ولا يستنكرها ، بل ويطالب المسلم بإشباعها . وقد قال الرسول لجماعة من الزهاد والصائمين نهارا والقائمين ليلا « أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ؛ وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتي فليس مني » (متفق عليه) فالإسلام يحقق معادلة رائعة للتوفيق بين الواقع والمثال . حينما يقر للمسلم بإشباع دوافعه جميعا ، في الاطار الذي حدده الشرع . وهو إطار لم يوضع للتضيق ، وإنما وضع بهدف التنظيم ، وضمان الاشباع للجميع . فالفرد المسلم لا يستطيع ولا ينبغي أن يكون ملاكا يقمع شهواته ، ويعطل جوانبا من طبيعته ، كما أنه لا يجب ولا ينبغي أن يكون شيطانا ، مستسلما لشهواته ، معطلا عقله وضميره ، بل عليه أن يكون إنسانا . فتلك هي فطرة الله التي فطره عليها ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وفي الشكل الآتي نموذج مقترح لمبدأ التوازن الذي يقوم عليه المحك الإسلامي للسلوك السوي .

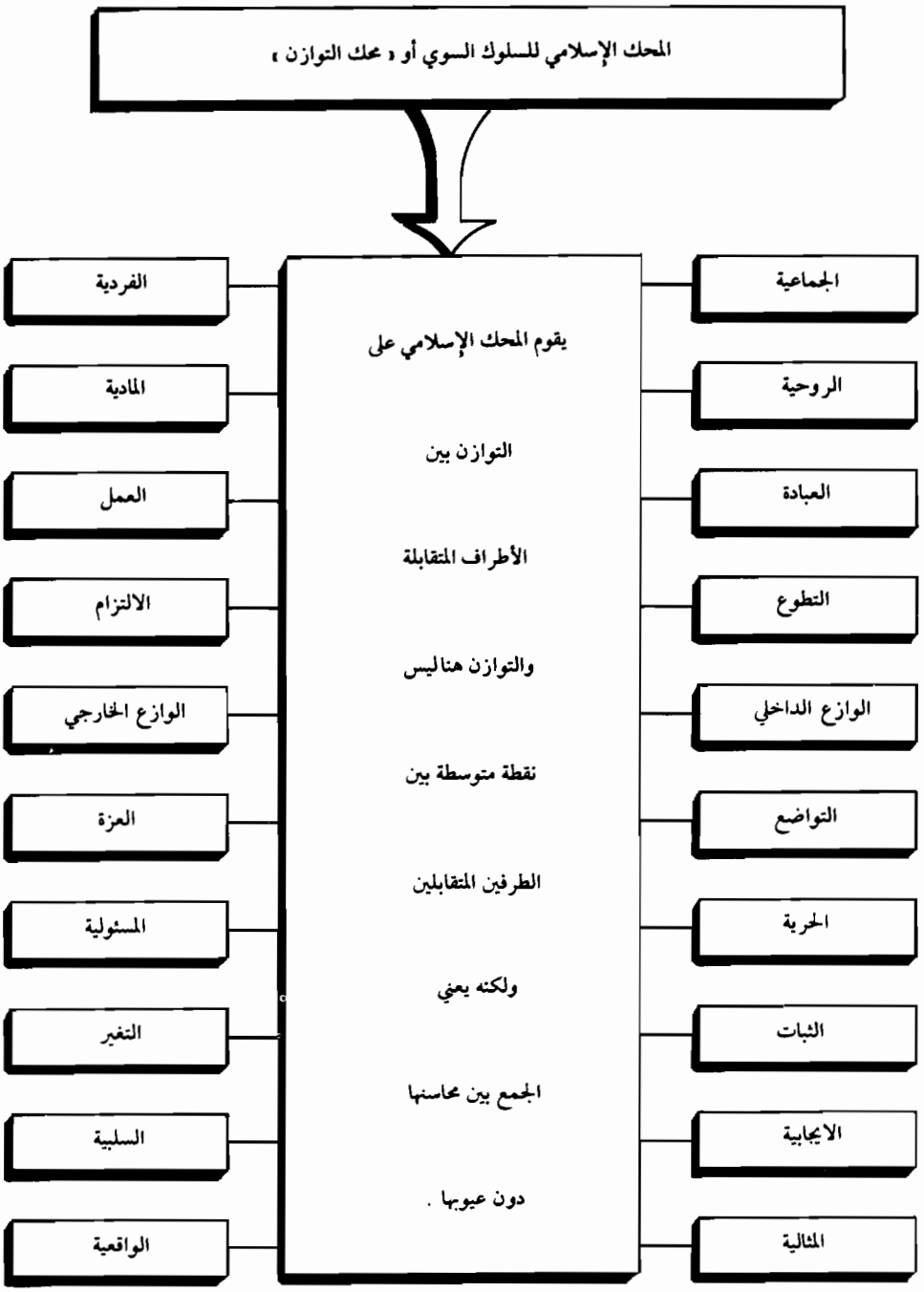
المحك الإسلامي للسلوك السوي أو « محك التوازن »
يقوم المحك الإسلامي على
التوازن بين
الأطراف المتقابلة
والتوازن هنا ليس
نقطة متوسطة بين
الطرفين المتقابلين
ولكنه يعني
الجمع بين محاسنها
دون عيوبها .
الفردية
المادية
العمل
الالتزام
الوازع الخارجي
العزة
المسئولية
التغير
السلبية
الواقعية
الجماعية
الروحية
العبادة
التطوع
الوازع الداخلي
التواضع
الحرية
الثبات
الايجابية
المثالية

٣ ــ قواعد تحكم السلوك في التشريع الإسلامي :

واستكمالا لعرض عناصر المحك الإسلامي للسلوك السوي نشير إلى بعض القواعد العامة ، التي تحكم السلوك اليومي للفرد المسلم . فالشريعة في الإسلام قد قامت أساسا لتيسير أمور الناس وتنظيمها على قاعدة من العدل والمساواة . ومن القواعد المعمول بها في الشريعة الإسلامية ، وتتعلق بسلوك الفرد أو الجماعة ما يأتي :

(حسب الله ، ١٩٧٦ ، ٣٤٣ ـ ٣٥٥) . (رضوان ، ١٩٧٥ ، ١٧٠ ـ ١٨٨)) (قطب ، ١٩٦٨ ، ٨٠ ـ ١٣٥) (عبد الرحمن ، ١٩٧٣ ، ٤١ ـ ٦٦) (العقاد ، ١٩٦٩ ، ٤٨ ـ ٥٤) (خان ، ١٩٨٣ ، ١٥٥ ـ ١٧٣) (السنهوري ـ ١٩٥٤) .

١ ــ **« إنه ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى وسيجزيه الله الجزاء الأوفى »** (النجم ـ ٢٩ ، ٣٠) وتشير الآية إلى بذل الجهد والعمل ، وإن كل إنسان محاسب على ما يعمل وسيجزي على عمله .

٢ ــ **« لا تزر وازره وزر أخرى »** (فاطر ـ ١٨) وتشير هذه الآية إلى القاعدة التي تؤكد المسئولية الفردية **« وكل انسان الزمناه طائره في عنقه »** (الاسراء ـ ١٣) أي أن كل انسان مسئول عن سلوكه .

٣ ــ **المسئوليةالعامة** : بجانب المسئولية الفردية هناك المسئولية العامة وهي المسئولية التي تتحملها الجماعة إزاء سلوك كل فرد فيها لأن الرسول ينبهنا إلى أنه إذا رأينا الظالم ولم نضرب يديه أوشك الله أن **يعمنا** بغذابه . هذا ويقام الحد على من يفسد في الأرض . وقد حددت الشريعة الأساليب السلوكية التي تعتبر إفسادا في الأرض . ويوجهنا الرسول أيضا إلى أن نتخذ **موقفاً** معارضا للسلوك المنحرف حتى ولو لم يكن يعنينا **مباشرة** « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فلبسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » (متفق عليه) .

٤ ــ **« لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » (البقرة ـ ٢٨٦)** وتشير **هذه الآية** إلى ارتباط التكليف بالاستطاعة ، فعندما يكلف المسلم بعمل لابد وأن يكون قادرا على القيام به ، وإلا سقط عنه التكليف ، ينطبق ذلك على العبادات وفي كافة شئون الحياة .

٥ ــ **« لا ضرر ولا ضرار »** والأساس في هذه القاعدة دفع الضرر ، **مع ملاحظة** أن الضرر لا يزال بالضرر ، وهي قاعدة مشتقة من هذه القاعدة ، حيث لا يمكن دفع الضرر بضرر آخر .

٦ ــ **« الدين يسر لا عسر »** فالدين لا يشق الناس بل ييسر عليهم ، وكان من أخوف ما يخاف

منه الرسول ﷺ على أمته لحاجة بعضهم في السؤال عما لم ينص الشرع على تحريمه ، فيجره ذلك إلى تحريمه على الناس ، فقال ﷺ « إن أعظم المسلمين في المسلمين جرما ، من سأل عن أمر لم يحرم عليهم فحرم على الناس من أجل مسألته » (متفق عليه) ومن دلائل اليسر في الدين « أن الله يحب أن تؤتى رخصه ، كما يحب أن تؤتى عزائمه ، ومن لم يأخذ برخصنا فليس منا » (متفق عليه) .

٧ ـ « **الأصل في الأشياء الإباحة ، والأصل في الذمة البراءة** » . فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، ويرى بعض الفقهاء أن ما لم ينص على تحريمه فهو مباح ، إذا كان يتفق مع العقل ولا يأتي منه ضر للذات أو الآخرين. وكون الأصل في الذمة البراءة في الإسلام يعني أن القاعدة الشهيرة بأن المتهم بريء حتى تثبت إدانته ، تلك القاعدة التي يزهو بها الفقه الجنائي الحديث ، سبقت الشريعة الإسلامية إلى إعلانها منذ ما يقرب من أربعة عشر قرنا . ويحدد الرسول قاعدة من أهم قواعد المنازعات عندما يقول « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » (متفق عليه) .

٨ ـ « **الحرج مرفوع** » وترتبط هذه القاعدة بقاعدة الاستطاعة . فالحرج مرفوع في الشريعة الإسلامية ، لأن الدين لا يشق على الناس ، بل يرأف بهم ويخفف عنهم ﴿ **الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا** ﴾ (الأنفال ـ ٦٦) . ويرتبط بهذه القاعدة أيضا قاعدة أخرى وهي أن المشقة تجلب التيسير ، انطلاقاً من قوله تعالى ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ (البقرة ـ ١٨٥) وقوله تعالى ﴿ **هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾ (الحج ـ ٧٨) . ويحدد الفقهاء سبعة أسباب للتخفيف وهي النقص والجهل والمرض والسفر والنسيان والاكراه وعموم البلوى .

٩ ـ « **الضرورات تبيح المحظورات** » وهي من أهم القواعد التي تبين مرونة التشريع الإسلامي ، فيباح أخذ مال الممتنع عن أداء دينه بغير إذنه وفاء لما عليه من دين ، وقتل المعتدي إذا كان دفاعا لابد منه عن النفس ، وأكل الميتة عند المخمصة .

١٠ ـ « **الأمور بمقاصدها** » ، يدخل الإسلام في تقويمه للسلوك نية الفرد وقصده ، والأصل في هذه القاعدة قول رسول الله ﷺ « إنما الأعمال بالنيات ولكل امريء ما نوى » (متفق عليه) وتصور هذه القاعدةالحقيقة النفسية التي انتهى إليها علم النفس الحديث ، بأن فهم السلوك وتقييمه لا يتم إلا بفهم الدافع وراءه . وهو الأساس الذي يؤسس عليه التشريع الجنائي المعاصر أحكامه ، فعقوبة القتل الخطأ ، ليست كعقوبة القتل الناشيء عن الاهمال ، وهذه ليست كعقوبة القتل مع سبق الإصرار والترصد .

١١ ــ « **يرتكب أخف الضررين** » ، بمعنى أنه إذا لم يكن هناك بد من ارتكاب أحد أمرين ضارين وجب إرتكاب أقلها ضررا ، وبهذا جاز التفريق بين المرأة وزوجها جبرا عنه إذا ضارها .

١٢ ــ «**درء المفسدة مقدم على جلب المنفعة** » ، وذلك لأن المشرع الإسلامي يهتم بدفع الضرر بالدرجة الأولى ـ كما ظهر من القواعد السابقة ـ فيعطيه أولوية على جلب المنافع . والسند في هذه القاعدة قول الرسول الكريم ﷺ « إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم » (متفق عليه) وقد تأكدت هذه القاعدة من الناحية العلمية حين أوضحت بحوث علماء النفس السلوكيين المعملية أن الميل إلى الإحجام أقوى من الميل إلى الإقدام ، بمعنى ميل الكائن إلى الابتعاد عن الهدف غير المرغوب فيه أقوى من ميله للاقتراب من الهدف المرغوب فيه . (كفافي ، ١٩٨٤ ، ص ١٨٠) .

١٣ ــ « **يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام** » ، بمعنى أن نفع الجماعة مقدم على نفع الفرد ، على ألا يضار الفرد من النفع الذي يصيب الجماعة ، ورغم أنه فرد فيها . ويصيبه في النهاية ما يصيبها . وهي القاعدة التي بنى عليها مبدأ دفع التعويضات للمتضرر بعد ذلك .

١٤ ــ « **تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض** » ، وهي ما تؤكد عقلانية الشريعة الإسلامية ومرونتها وإستنادها في تحقيق مصالح العباد إلى المنطق ، وإحتكامها إلى العقل بالدرجة الأولى .

١٥ ــ « **لان يخطيء الإمام في العفو خير من أن يخطيء في العقوبة** » وهي الأساس في المبدأ القانوني المعاصر الذي يرى أن تبرئة مائة مذنب أهون وأخف من ظلم بريء واحد .

١٦ ــ « **تفسير الأحكام يتغير بتغير الزمان والمكان** » وهي من شواهد مرونة الشريعة ، بما يتفق وشئون الناس المتغيرة ، ويدخل في تطبيق هذه القاعدة إبطال الخليفة عمر ابن الخطاب لسهم المؤلفة قلوبهم فيمن تعطى لهم الصدقة .

هـ ــ خصائص المحك الإسلامي :

والآن وبعد أن أجبنا على التساؤلين الثاني والثالث . والخاصين بامكانية استنباط محك للسلوك السوي من الإسلامي ، وبالأسس والمباديء التي يقوم عليها هذا المحك ، نأتي إلى التساؤل الرابع والأخير والخاص بتحديد **خصائص** هذا المحك ومميزاته . ومن استعراض عناصر المحك الإسلامي ، والقواعد التي تحكم سلوك المسلم في معاملاته ، يمكن أن ننتهي إلى تحديد هذه الخصائص التي تميز المحك الإسلامي للسلوك السوي وأهمها :

١ ــ المحك الإسلامي للسلوك السوي محك إنساني :

وذلك لأن الإسلام كرم الإنسان ﴿ **وقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر** ﴾ (الاسراء ـ ٧٠) . وقد رأينا أن قواعد الشريعة الاسلامية ، تدور حول تيسير الأمور ، ودفع الضرر ، ورفع الحرج ، عن المسلم ، وتحقيق الأمن والاشباع له . بل أن الإنسان هو مدار الرسالة الاسلامية كلها ، وحتى فيما يتعلق بغير المسلمين فإن قاعدة « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » تحكم هذه العلاقة ولذلك فإن الاسلام يقر حاجات الفرد وحقوقه ، بل ويحثه على تحقيق امكانياته إلى أقصى حد ، ويوفر له الجو للعمل فليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى وسيجزيه الله الجزاء الأوفى .

٢ ــ المحك الإسلامي للسلوك السوي محك عالمي :

ويترتب على صفة الانسانية التي يتصف بها المحك الإسلامي صفة أخرى وهي صفة العالمية فما دام التشريع الإسلامي يوجه إهتمامه إلى الانسان ويرعى حقوقه ، ولا يفرق في هذه الحقوق بناء على الفروق اللونية أو العرقية . فهو نظام عالمي يناسب الانسان أيا كان مكانه أو زمانه . ويخاطب القرآن الرسول ﷺ قائلا ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ (الأنبياء ـ ١٠٧) ولم يعرف عن الحكام المسلمين في الأمصار التي فتحوها ـ خاصة في عصور الإسلام الأولى ؛ أي تمييز في المعاملة بين المسلمين وسكان البلاد الذين بقوا على دياناتهم .

٣ ــ المحك الإسلامي للسلوك السوي محك شامل :

وذلك لأن توازنية المحك أو وسطيته تجعله شاملا لكل جوانب الشخصية الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية والدافعية ، كما يشمل هذا المحك سلوك الفرد في علاقاته بذاته وبالمجتمع وبالكون .

٤ ــ المحك الإسلامي للسلوك السوي محك واقعي :

ولأن المحك الإسلامي يقوم على التوازن بين جوانب الانسان المادية وغير المادية ، ويعترف له بكل نوازعه ودوافعه ، ويسمح له بإشباعها جميعا في إطار اجتماعي منظم . فإنه يكون محكا واقعيا يتعامل مع الانسان كما هو ، ولا يتطلب منه لكي يكون سلوكه سويا غير ما يحتمل ، وغير ما يتفق مع طبيعته .

٥ ــ المحك الإسلامي للسلوك السوي محك واضح :

ووضوح المحك الإسلامي يعتمد على وضوح العقيدة الاسلامية ذاتها , فالاسلام ليس به أية أفكار غامضة أو مبهمة . بل أنه واضح وقاطع في تسليم الأمر كله لله الواحد القهار . وعلى نسق عقيدة التوحيدالخالصة والواضحة،تدور كل قواعد الشريعة ، فهي واضحة كل الوضوح مثلا في دفع الضرر ورفع الحرج عن الناس . وترفض كل ما يجلب عنتا أو مشقة أو أذى للفرد أوللمجتمع . ومصدر آخر لوضوح المحك الإسلامي هو عقلانيته . فكل ما يتفق مع العقل والمنطق يقبل به الدين في إطار التوازن بين جوانب الفرد المختلفة ، وكذلك التوازن بين الفرد والمجتمع . وتعطي الشريعة الأولوية للعقل إذا تعارض مع ظاهر الشرع .

٦ ــ المحك الإسلامي للسلوك السوي محك مرن :

يتسم المحك الإسلامي بالمرونة . لأن تغير الأحكام فيه يتغير بتغير الزمان والمكان ، لأن الشريعة في الاسلام بنيت على أساس مصالح الناس ، وهي مطالبة بتحري المصالح التي بنيت عليها . وفي هذا المحك تبيح الضرورات المحظورات ، والمشقة تجلب التيسير ، ويقدالمنطق العقلي على ظاهر النص عند التعارض . إذن فقواعد المحك ليست جامدة ، ولكنها مرنة ، لأنها تنشد الاشباع والسمو للانسان في كل حالاته . وقد رأينا اجتهادات الخلفاء والفقهاء لمواجهة المواقف الجديدة التي كانت تقابلهم .

كانت هذه بعض صفات المحك الاسلامي للسلوك السوي . ونتخم هذه الدراسة بتوضيح مع اتفاق السلوك السوي طبقا لهذا المحك مع سمات السلوك السوي كما تصفه كتب علم النفس (Cole, 1970) (Coleman, 1964, 4-22) (سوين ٧٦ ـ ٨٠) ، (كفافي ٢٢ ـ ٢٥) . فالسلوك السوي طبقا للمحك الاسلامي يتسم بما يأتي :

١ ــ السلوك السوي طبقا لهذا المحك يتسم **بالواقعية** . والواقعية هنا تعني أن يتجه السلوك إلى حل المشكلات التي يستطيع الفرد حلها ، كما يتجه الى تحقيق الأهداف التي يتمكن من بلوغها ، والسلوك في المحك الاسلامي محكوم بالقاعدة التي تقررها الآية الكريمة « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » . . فالله لا يكلف أحدا فوق طاقته ، وعلى الفرد ألا يكلف نتفسه ما لا يطيق ، وعليه أن يحدد أهدافه في الحياة في حدود ما يمكن أن يبلغه ، كل ذلك في إطار بذل أقصى الجهد ، وفي إطار مسئوليته عن أفعاله ، حتى تتحقق امكانياته إلى أقصى درجة ممكنة .

٢ ــ السلوك السوي طبقا لهذا المحك يعكس **الشعور بالأمن والطمأنينة** . وذلك لأن الفرد المسلم في المجتمع المسلم آمن على نفسه وعلى ماله وعلى عرضه ، ولأن الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه ، ولأن الناس بخير ما تعاونوا ، ولأن المسلم لا يصح أن يبيت شبعانا وجاره جائع ، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم . هذا المناخ المتسم بالود والتآخي والتعاون والمحبة ، بل والايثار ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصه** ﴾ (الحشر ـ ٩) . هذا المناخ من شأنه أن يجعل الفرد آمنا مطمئنا منصرفا بكليته إلى عمله وتحصيل معاشه .كما أن نظام التكافل الاجتماعي المعتمد على الزكاة والصدقات ينشرمظلة من الأمن والأمان على أفراد المجتمع .

٣ ــ السلوك السوي طبقا لهذا المحك يتسم **بالمرونة** وقد ذكرنا فيما سبق أن تفسير الأحكام يتغير بتغير الأحوال لتحقيق أقصى درجات الخير للفرد والمجتمع . وعلى المستوى الفردي فالمسلم مطالب بأن يكون مرنا متفتح الذهن واسع الأفق مستخدما كل قواه العقلية في مواجهة مشكلاته . وباب الاجتهاد في الاسلام مفتوح على مصراعيه لمن يقدر عليه ، ولمن أهل له . وقد جاء في باب معايش الدنيا في صحيح مسلم عن موسى بن طلحه عن أبيه قال « مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رؤوس النخل، فقال : ما يصنع هؤلاء ؟ قيل : يلقحونه . . فقال : « ما أظن يغني ذلك شيئا » فأخبروا بذلك فتركوه .وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإني إنما ظننت ظنا ، فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به » . وفي رواية رافع بن خديج انه قال : « انما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر » .

٤ ــ السلوك السوي طبقا لهذا المحك يتسم **بالادراك الصحيح للواقع** . وذلك لأن المسلم في المجتمع المسلم يتاح له جو الأمن والحفز للعمل ، وكل ما يمكن أن يجعله يعيش واقعه ويتكيف معه . وبالتالي فهو متحرر من كثير من الضغوط الداخلية أو الخارجية التي تجعل الفرد يشوه ادراكه للواقع ، هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان عمق إيمان المسلم بربه ، وثقته في عدالته ورحمته ، تجعله يواجه الشدائد برباطة جأش ويعالجها بصبر ، متوكلا على الله ، آملا في عونه ونصره . هذا التوجه لا يجعل الفرد في حاجة ألى أن يشوه الواقع تخفيفا للمعاناة ، كما يفعل الآخرون .

٥ ــ السلوك السوي طبقا لهذا السلوك يقوم على **فهم الذات وتقبلها وتطويرها** ، وذلك لأن المسلم يعرف حديث رسول الله « رحم الله امرءا عرف قدر نفسه » فهو مطالب بفهم

ذاته ، ومعرفة نقاط القوة ونقاط الضعف في شخصيته . وعليه أن يتقبل ذاته كجزء من تقبل ما كتبه الله له . ولكن هذا التقبل للذات لا يمنعه من العمل على تطويرها بعلاج أوجه القصور والنقص لديه ، لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .

٦ ــ السلوك السوي طبق لهذا المحك يتسم **بالتعادل في العلاقات مع الآخرين** فالفرد السوي لا يكون إعتماديا على الآخرين ، كما لا يكون نافرا ومتجنبا لهم . والمحك الاسلامي الذي يقوم أساسا على فكرة التوازن خير من يوضح الحدود التي على الفرد أن يراعيها في تفاعله مع الآخرين . فالاسلام يحض المسلمين على التعاون والتآخي والتآلف ومساعدة بعضهم البعض ، ولكنه يدعوهم ايضا إلى الاعتماد على النفس في العمل ، والكد وبذلك الجهد .

٧ ــ السلوك السوي طبقا لهذا المحك يتسم **بالتناسب** ، بمعنى تناسب السلوك مع الموقف ، والمحك الاسلامي يعتبر أن السلوك السوي هو السلوك الذي يتناسب مع الموقف . فالاسلام ضد المبالغة والمغالاة في إظهار الانفعالات سواء في مواقف الحزن أو مواقف الفرح . وإنما المسلم مطالب بالاعتدال والقصد في كل أموره لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم (الحديد ـ ٢٣) وقد رأينا فيما سب قأن الإسلام يطالبنا بأن نظهر وظيفة معينة ، وليس حينما يكون استهلاكا لطاقة الانسان وتبديدا لها . فالاسلام يريد المسلم أن يحفظ طاقته النفسية للمواقف التي يحتاج فيها هذه الطاقة ، حيث تؤدى وظيفة حيوية ، لا حيث تكون انفعالاته خيلاء أو كبرا أو زهوا ، أو تكون يأسا أو قنوطا أو حزنا .

المراجع :

١ ــ القرآن الكريم .

٢ ــ صحيح البخاري لابي عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ابن المغيرة بردزبه البخاري الجعفي . دارمطابع الشعب .

٣ ــ صحيح مسلم ـ بشرح النووى ـ الطبعة لاثانية دار الفكر بيروت ـ لبنان ١٩٧٢ .

٤ ــ جارودي (رجاء) : الاسلام وأزمة الغرب ـ من ثمار الفكر ـ الموسم الثقافي التاسع ـ جامعة قطر ١٩٨٤ ـ من ص ١٧٩ الى ١٩٩ .

٥ ــ حسب الله (علي) : أصول التشريع الاسلامي . دار المعارف . القاهرة الطبعة الخامسة . ١٩٧٦ .

٦ ــ خالن (وحيد الدين) : ترجمة خان (ظفر الاسلام) ومراجعة شاهين (عبد الصبور : الاسلام يتحدى ، دار البحوث العلمية ، الطبعة الراعبة ١٩٨٣ م .

٧ ــ رضوان (فتحي) : من فلسفة التشريع الاسلامي . دار الكتاب اللبناني . بيروت ١٩٧٥ م .

٨ ــ السنهوري (عبد الرزاق) : مصادر الحق ف الفقه الاسلامي ـ الجزء الأول ـ دار الأحايء التراث العربي . بيروت ١٩٥٤ م .

٩ ــ سوفي (ريتشادر) : ترجمة سلامة (احمد عبد العزيز): علم الأمراض النفسية والعقلية . دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٩ م .

١٠ ــ القرضاوي (يوسف) : الخصائص العامة للاسلام ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٨١ م .

١١ ــ عبد الرحمن (عائشة) (بنت الشاطيء) الشخصية الاسلامية . دراسة قرآنية دار العلم للملايين ـ بيروت . ١٩٧٣ م .

١٢ ــ عبد الباقي (محمد فؤاد) : المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، القاهرة ١٩٧٣ .

١٣ ــ عبد الغفار (عبد السلام) : مقدمة في الصحة النفسية . دار النهضة العربية القاهرة . ١٩٧٦ .

١٤ ــ العقاد (عباس محمود) : الانسان في القرآن . دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٦٩ م .

١٥ ــ الغزالي (محمد) : القيم الانسانية في الاسلام . من ثمار الفكر . الموسم الثقافي التاسع ـ جامعة قطر ـ ١٩٨٤ م من ص ٤٦ ـ ٦٥ .

١٦ ــ فينخل (اوتو) : ترجمة مخيمر (صلاح) ، رزق (عبده ميخائيل) : نظرية التحليل النفسي في العصاب ، الجزء الثاني ، مكتبةالأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦٩ م .

١٧ ــ قطب (محمد) الانسان بين المادية والاسلام ، دار احياء الكتب الرعبية الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٨ م .

١٨ ــ قطب (محمد) : منهج التربية الاسلامية . دار الشروق ـ بيروت ب . ت .

١٩ ــ القوص (عبد العزيز) : أسس الصحة النفسية . مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، الطبعة السادسة ١٩٨٠ م .

٢٠ ــ كامل (فؤاد) : وآخرون (ترجمة) ، محمود (زكي نجيب) مراجعة . الموسوعة الفلسفية المختصرة . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٢ م .

٢١ ــ كفافي (علاء الدين) : الصحةالنفسية . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٤ م .

22. American Psychiatric Association: Diagnostic and Statistical Manual Disorders. (D.S.M.II)

23. Bendict, R.: Patterns of Cultures, Sentry Edition, 1959.

24. Cole, L.E.: Understanding Abnormal Psychology, Chandler Publishing Company, 1970.

25. Coleman, J.C.: Abnormal Psychology and Modern Life, Scott, Foresman and Company, 1964.

26. Egyptian Psychiatric Association: Diagnostic Manual of Psychiatric Disorders. (D.M.P.) Cairo 1975.

27. Lewis, H. Shame and Guilt in Neurosis, International Universities Press Inc. N.Y. 1974.

28. Mead, M. Male and Female, Penguin Books, 1971.

29. World Health Organization, Manual of the International Statistical Classification of Diseases, Injuries and Causes of Death, 1967.